قضايا نسائية في الرواية "حكاية صفية" لليلى العثمان

Qadhaya Nesaiyyah fi Al Rewayah "Hikayat Safiyah" le Laila al Othman

(Women's Issues in the novel "Hikayat Safiyah" by Laila al Othman)

بحث جامعي

لنيل الشهادة ما قبل الدكتوراه

تحت إشراف

الدكتور محمد قطب الدين

الباحث

محمد آفاق عالم

مركز الدراسات العربية و الإفريقية

كلية دراسات اللغة و الأدب و الثقافة

جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي

110067

مركز الدراسات العربية والإفريقية
Centre of Arabic and African Studies
School of Language, Literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University, New Delhi - 110067
जवाहरलाल नेहरू विश्वविद्यालय, नई दिल्ली-110067
Gram: JAYENU Tel : 26704253 Fax : 91-11-2671 7525

24th July, 2016

DECLARATION

I declare that the dissertation entitled **"Women's Issues in the Novel "Hikayat Safiyah" By Laila Al Othman"** submitted by me is in the partial fulfillment of the requirements of the award of the degree of Master of Philosophy of this university. The dissertation is original research work and has not been previously submitted for any other degree of this or any other University partially or fully.

Mohd. Afaque Alam

MOHD AFAQUE ALAM

(RESEARCH SCHOLAR)

CERTIFICATE

We recommend that this dissertation be placed before the examiners for evaluation.

Dr. MD QUTBUDDIN

(SUPERVISOR)

CAAS / SLL&CS / JNU

Centre of Arabic & African Studies
SLL & CS
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067

24/7/16

Prof. RIZWANUR RAHMAN

(CHAIRPERSON)

CAAS / SLL&CS / JNU

Chairperson
Centre of Arabic and African Studies
SLL&CS, Annex Building
Jawaharlal Nehru University
New Delhi -110067

مقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه الأمي الكريم، ثم على أصحابه ومن سار على نهجهم واتبع سبيلهم من العلماء والأئمة إلى يوم الدين، أمابعد:

تعتبر القضايا النسائية منذ أواخر القرن الثامن عشر أو الثورة الصناعية في بريطانيا و بلاد غربية أخرى بالتحديد، من أهم الموضوعات التي يتحدث عنها الأدباء و الكتاب في العالم، وهي التي اتخذها أصحاب العلم و الفن موضوعا لهم، و لا تزال تجذب انتباههم بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية و الجغرافية و العقائدية و خلفياتهم التربوية و الاجتماعية، فهم على اتفاق في إعطاء النساء الحرية المطلقة التي لا يستطيع بعده أحد مهما كان، أبا أو أخا أو زوجا، أن يتحداها أو يحول دونها أو يختطفها ظلما عليهن.

و من أهم القضايا النسائية التي حث هؤلاء الكتاب على البحث عن حلولها، هي حرية النساء من جميع القيود التي فرضها عليهن المجتمع الإنساني خاشيا من فتنتهن، وقتلهن حماية عن الشرف، وتزويجهن في سن المراهقة، ومنعهن من الحصول على التعليم والعمل خارج بيوتهن، وعدم مشاركتهن في الأمور العائلية وإلى ذلك من القضايا المتنوعة.

ووصلت موجة تحرير المرأة من الغرب إلى العالم العربي عن طريق كتابات بعض المصريين المتجددين الذين رأوا أن تعليم البنات وتثقيفهن من أهم ضروريات

العصر فدعوا إلى نزع الحجاب وذلك بسبب كونه حاجزا في الطريق إلى الترقية و الازدهار.

ولم يسمع شعارات حرية النساء العالم العربي إلا في منتصف القرن التاسع عشر في مصر عندما دعا الأستاذ رفاعة رافع الطهطاوي في كتابيه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" (عام 1834م)، و" المنهج الأمين لتعليم البنات والبنين" (1873م)، إلى تعليم البنات وتوفيرهن الفرص للتكاتف مع الأبناء في بناء الدولة المتقدمة.

ومحاولة الطهطاوي لم تكن إلا بداية سلسلة من الكتاب الذين سعوا إلى تصوير المجتمع العربي الإسلامي حبا له أو عنادا ومنهم فارس شدياق صاحب كتاب "الساق بالساق عام 1855م"، وصاحب مجلة نسائية "الفتاة" عام 1892م، وقاسم أمين صاحب كتب "تحرير المرأة" عام 1899م، و"المرأة الجديدة" عام 1900م، و"المصريون"، ومرقص الفهمي صاحب كتاب "المرأة في الشرق" عام 1894م.

ولم تتوقف هذه الموجة في مصر بل وصلت إلى أنحاء العالم العربي والإفريقي فنرى العديد من الكتاب الذين أعلوا أصواتهم دفاعا عن حقوق النساء.

ودولة الكويت التى تعتبر أكثر محافظة على القيم الإسلامية لم تنجح في فرض القيود على النساء فنرى أربعة فتيات من أسر التجار المعروفين قامت بنزع عباءاتهم والبوشية وحرقها عام 1956م احتجاجا على تلك الملابس المقيدة لحركة المرأة وتعبيرا عن المطالبات بحرية المرأة.

ولـو لـم تكـن مسـاهمة الشـيخ عبـد الله الجـابر (1900-1996م)، والشـيخ يوسف بن عيسى القناعي (1878-1873م) في هذا الصراع بين التقليد والتجديد لما نجحت حركة تحرير المرأة في الكويت وساعدهما في هذا الصراع العديد من الشعراء والكتاب ومنهم الأديبة الروائية الشهيرة ليلى عبد الله عبد اللطيف العثمان التي تعتبر رائدة الأدب النسوي بل الإنساني في الكويت وأثارت جدلا واسعا بين الأدباء والكتاب من خلال كتابتها الجريئة والرواية "حكاية صفية" أفضل مثال لجرأتها الإبداعية فهي تبحث فيها جرائم الشرف التي تعتبر من الفظائع الاجتماعية والدينية المسكوت عنها وتثبت وجودها في المجتمع الكويتي القديم.

وتجدر الإشارة إلى أن حكاية صفية من أجرأ ما كتب لا في الأدب الكويتي فحسب بل في الأدب العربي كله، وهي تعالج قضايا نسائية متواجدة في مجتمع، يعتبر من أكثر المجتمعات محافظة على القيم الدينية والاجتماعية، كما تشير إلى ظاهرة عامة في الكويت القديمة، كانت غائبة عن أعيننا وهي ظاهرة توافر اللذائذ المحرمة في بيت الوناسة أو بيت الهوى. وبسبب أفكارها الرائعة، اخترت هذه الرواية لدراستها التحليلية ولاكتشاف ملامحها وسماتها البارزة في محاولة للوصول إلى الغاية النبيلة التي كانت تتبعها الرواية ليستفيد منها الناس عامة والدارسون للغة العربية خاصة، فشجعني مشرفي الدكتور محمد قطب الدين حفظه الله وتولى مسئولية الإشراف، وأنني قمت بتقديم دراسة تحليلية للموضوعات والقضايا التي تناولت الرواية، واكتشاف سماتها البارزة.

وقد قسمت هذه الرسالة إلى مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة، أما الباب الأول فهو ينقسم إلى ثلاثة فصول: وفي الفصل الأول ألقيت نظرة خاطفة على عصر ليلى العثمان، والفصل الثاني يشتمل على بيان اسمها ونسبها ونشأتها وحياتها، والفصل الثالث يلقي الضوء على حياته الأدبية.

أما الباب الثاني فقد قسمته إلى ثلاثة فصول: فقد قمت بالدراسة التحليلية للقضايا النسائية التي أحاطت بها الروائية ليلى العثمان وآراء المعاصرين في تأييدها وضدها. أما الباب الثالث فهو يشتمل على أربعة فصول: قد تحدثت في الفصل الأول عن المنهج الفني في الرواية وفي الفصل الثاني ألقيت الضوء على الفكرة الرئيسية في الرواية، وفي الفصل الثالث حاولت اكتشاف ملامح بارزة للرواية، والفصل الرابع يحتوي على بيان سلبيات الرواية.

لا يستطيع أحد أن ينكر أن هذا الموضوع – قضايا نسائية- من أصعب الموضوعات التي جذبت انتباه أدباء العالم وأرقتهم، لأنه يتطلب العلم الغزير والمعرفة الواسعة للأعمال الأدبية العربية، وآراء الأدباء المعاصرين من جانب، ويقتضي دراسة متأنية محايدة للرواية "حكاية صفية" من جانب آخر، ولكني حاولت بكل ما في وسعي في القيام بدراسة تحليلية للموضوعات والقضايا وإبراز ملامح الرواية وسلبياتها بدون انحياز ومحاباة.

وأخيرا يصبح لزاما علي، أن أوجه الشكر والامتنان من أعماق قلبي إلى الأصدقاء والأحباء الذين ساعدوني بكل ما تيسر لهم، ومدوا أيدي المساعدة في كل

مرحلة من مراحل كتابة هذا البحث، وأخص بالشكر أستاذي ومشرفي الدكتور محمد قطب الدين حفظه الله وتولاه الذي أخلص في الإشراف على هذه الأطروحة بكل دقة واهتمام، و زودني بآرائه القيمة، فأدعو الله تعالى أن يمنحه بدوام الصحة والعافية وأن يطيل عمره، لكي يمكن لنا جميعا جيلا بعد جيل أن نستفيد من علمه الغزير ومعرفته الواسعة، أللهم آمين، كما أتضرع إلى الله سائلا أن يتقبل هذه المجهودات المتواضعة ويضيفها إلى حسناتي يوم القيامة. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

محمد آفاق عالم

جامعة جواهر لال نهرو

الباب الأول

ليلى العثمان: عصرها و حياتها و أعمالها

لا تكتمل دراسة حياة الأديب وأدبه إلا عن طريق اختلاس النظر إلى المجتمع الإنساني، الذي يعيش فيه ويتنفس، فيتأثر بكل ما يجري فيه من أحداث، تقدر على تغيير مجرى حياة الناس، ويعبر عن مشاعره وأحلامه التي تجول بخاطره طلبا لتحسين أوضاع شعبه ومستوى حياتهم فالأدب عنده وسيلة للإعراب عن القضايا التي عاناها المجتمع الإنساني أو لا يزال يعانيها ويتخذه سلاحا له للدفاع عن البلايا والرزايا التي هدمت المجتمع وكادت تمحو آثاره.

ليس الأديب مجرد كاتب، أو صحفي، يأتي بالحقائق البديهية الخالية من المشاعر الإنسانية. إنه متكهن خبير، يمتلك نظرا عميقا قادرا على لفت النظر إلى الماضي، فيتأثر بزلاته، ويتعلم منها، ثم يلقي النظر على الأوضاع الراهنة في المجتمع، ويقارن بين الماضي والحاضر، حتى يأتي بالمستقبل الذي لا يقدر على رؤيته إلا صاحب النظر العميق مثل الأديب.

ولا أرى بدا من التلبية للضرورة إلى دراسة الحياة العامة في المجتمع الكويتي المعاصر مع إلقاء النظر على المجتمع الكويتي الحديث، قبل أن أبدأ

دراسة حياة الأديبة الشهيرة الكويتية السيدة ليلى عبد الله العثمان، التي ربا ها نفس المجتمع تربية قاسية مليئة بذكريات الطفولة وأيام المراهقة المريرة، حتى تعلمت أسرار الحياة الإنسانية في المجتمع الكويتي خاصة والمجتمع العربي عامة، وتعرفت على العوائق الحائلة دون أحلام المرأة الكويتية، والمصائب والآلام التي تواجهها في سبيل تحقيق أحلامها.

الفصل الأول

عصر ليلى عثمان–لمحة خاطفة

نشأة دولة الكويت نشأة حديثة قبل النفط

لم تكن الكويت إمارة أو كيانا في التاريخ القديم أو الإسلامي، وإنما هناك أرض، أصبحت فيما بعد، تعرف بالكويت، وكانت معروفة باسم "فيلكا" في العصر القديم، و"القرين" في الفترة المتأخرة، عندما كانت جزءا من جزيرة العرب، أو جزءا من كيان، قام في شرقي الجزيرة سمي بالبحرين، وفي العهد الإسلامي والحديث كانت هناك "كاظمة" و"القرين" في المكان، الذي نشأت فيه دولة الكويت الحديثة. قد سكنت هذه المنطقة قبائل عربية، هاجرت إليها بحكم النشاط التجاري، الذي كانت تتمتع به لموقعها على رأس ساحل الخليج العربي.

أما نشأة دولة الكويت الحديثة، فمما لا شك فيها أنها نشأت نشأة ممتدة على عصور، مثلما يحدث مع أي مجتمع أو كيان، وذلك أدى إلى تضارب آراء المؤرخين حول تاريخ نشأتها، ولكنهم على اتفاق، أنها بدأت تنشأ في منتصف القرن السابع عشر، كما قال الدكتور عبد المالك خلف التميمي في كتابه "أبحاث في تاريخ الكويت".

"لقد تضاربت آراء المؤرخين حول تاريخ نشأة الكويت، فالأرض التي تقع عليها الكويت موجودة وتابعة للبحرين كما أسلفنا قبل العصر الحديث، ونشأة الكويت بهذه التسمية حديثة، ومن الصعب تحديد سنة معينة لذلك التأسيس، ولكن الوثائق التاريخة توضح أن نشأتها كانت في منتصف القرن السابع عشر تقريبا. إن قيام المدن ونشأتها لا يتم في سنة واحدة ولا تتم في وقت قصير[1]".

وأضاف قائلا "إن ظروفا اقتصادية واجتماعية وسياسية قد دفعت بعض القبائل والأفراد إلى الهجرة والإقامة في هذه الأرض في تلك الفترة لإقامة قرية ثم مدينة ثم إمارة ثم دولة هي الكويت"[2].

إن الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعبية قد جذبت انتباه قبائل العرب، التي كان أفرادها يعانون بمشكلة البطالة وقلة الفرص لاكتساب القوت، بينما كانوا منهكين وخارت قواهم بسبب الصراع المستمر الدائر بين القبائل المختلفة المشتاقة إلى تولى الأمر. ربما كانوا يبحثون عن المكان الآمن البعيد عن الحروب الدامية لكي يعيشوا مرتاحي البال حتى وصلو إلى هذه المنطقة ووجدوها قادرة على توفير الفرص الذهبية المتساوية للجميع فانتهزوها واستقروا فيها.

ولا يستطيع أحد أن يدعي بأنه يعرف المجتمع الكويتي الحديث والمعاصر حق المعرفة حتى يكتشف أسرار حياتهم في الفترة ما قبل النفط وما بعده ومدى تأثرهم

---

[1]- أبحاث في تاريخ الكويت، عبد المالك خلف التميمي، صفحة 12

[2]- المرجع السابق

بهذا التغير الاقتصادي العظيم، لأن الفرق بين هذا وذاك شاسع فأرى ضرورة دراسته دراسة منقسمة إلى الكويت قبل النفط والكويت بعد اكتشاف النفط لكي نقدر على فهم الأسباب والدوافع، التي لعبت دورا هاما في تطور مدينة صغيرة إلى إمارة ذات أهمية استراتيجية عظيمة، والتغيرات السياسية والاجتماعية المصاحبة مع التغير الاقتصادي التي وقعت في المجتمع.

الحياة الاقتصادية في الكويت

لقد فتحت الروائية ليلى العثمان عينيها في مجتمع متربص بتحول اقتصادي عظيم،قد غير مجرى حياة شعب هذه الدولة ومستقبلهم، سياسيا، واجتماعيا. منذ بداية تاريخها كدولة مستقلة، كان اقتصادها معتمدا كل الاعتماد على التجارة البحرية والبرية والغوص في البحر، بحثا عن اللؤلؤ، وصيدا للأسماك، فحياة الشعب الكويتي قبل النفط، لم تكن إلا حياة عادية مليئة بالكفاح في سبيل أداء الواجبات تجاه الأسرة والمجتمع، وتشير السيدة ليلى عبدالله العثمان إلى نفس التغير، الذي وقع في المجتمع الكويتي، عندما تصور صورة الحياة العامة فيه قبل اكتشاف النفط في روايتها الشهيرة "وسمية تخرج من البحر" فتسأل:

"أين هي الآن خارطة الحي والمدينة القديمة؟ كل شيئ نسفوه باسم الحضارة. واحتلت العمارات الشاهقة أماكن الطفولة ودكت أفراحها وحكاياتها التي سطرت على الجدران الطينية. حكايات مكتوبة بدم القلب لا يعرف مكانها إلا من كتبها ومن كتبت له.

كل شيئ أزالوه، الأحواش الواسعة التي ترتمي فيها جدائل الشمس كل صباح فتوقظ الأجفان النائمة بأمان، حتى أجفان الأبقار والأغنام الهاجعة تحت عرائشها، تبدأ تتنفس ويعلو ثغاؤها مستجيرة من جوع الليل ومن الخير الذي أثقل أثداءها"[3].

وتشيرفي روايتها الأخرى "حكاية صفية" إلى نفس التغير الذي تجربه صفية عندما تخرج من السجن بعد ثلاثين عاما، فتجد كل شيئ غريبا، وتسأل: --هذي الكويت؟[4].

تعتمد حياة الشعب في أي مجتمع على اقتصاده اعتمادا أكثر من أي شيئ، لأنه يمهد لهم الطريق إلى اختيار الوسائل المتنوعة لتسهيل حياتهم،وكان الكويتيون في الفترة ما قبل النفط معتمدين كل الاعتماد على ركائز الاقتصاد التقليدي، وهي التجارة والرعي والغوص على اللؤلؤ والحرف.

الحياة الاجتماعية في الكويت

إن المجتمع الكويتي الحديث يتسم بالخصائص والسمات، التي لم تكن إلا نتاج تأثير بيئتي البحر والصحراء، فلقد تقاسمت البيئتان تكوين هذا المجتمع وبناء عاداته وعلاقاته، إذ كان البحر ذخيرة النعم الكامنة في جوفه، وكانت الصحراء موردا للرعي وتجارة القوافل، هذا والنشاط التجاري والاستقرار السياسي جذب اهتمام المهاجرين، الذين كانوا يعانون بالفقر والحرب في المناطق المجاورة، فاختار

[3]- وسمية تحرج من البحر، ليلى العثمان، صفحة 23-24

[4]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 213

عدد ليس بالقليل منهم الاستقرار والإقامة في الكويت جماعة بعد أخرى، وامتزج السكان اجتماعيا، حتى أصبحت لهم سماتهم وخصائصهم الخاصة بهم، ولكنها ليست منفصلة عن سمات وخصائص المجتمع الخليجي العربي بل امتداد لها.

نشأت هذه السمات والخصائص في حياة الشعب الكويتي العادية نشأة، يمكن للجميع التمييز بها بين الكويتي وغير الكويتي، وظهرت ملامحها وآثارها في القيام بواجباتهم اليومية وسلوكياتهم الاجتماعية والقيم الخلقية. ففي الغوص في أعماق الخليج العربي للبحث عن اللؤلؤ، والصيد للأسماك، كانت لهم مهنة الشرف والافتخار وسبب من الأسباب التي يقرب بها العبد من معبوده، فلم تكن حياتهم محيطة إلا بالوسائل التي تعتبر أساسية لقضاء الحياة مثل الأرزاق المكتوبة من المهن المنهكة، والمحافظة على القيم الدينية والاجتماعية السائدة في المجتمع العربي، والاعتصام بحبل الله اعتصاما، يضمن نجاة العبد يوم الحساب.

كان المجتمع الكويتي قديما متكونا من الأسر الكبيرة، التي يرأسها الأكبر منهم سنا، ولم يكن لعضو من أعضاءها بدا من الاتباع بأوامره، وكانت المسؤوليات منقسمة بين الرجال والنساء والبنين والبنات حتى الأجداد والجدات، فكان للأسرة الكويتية نوع من الاكتفاء الذاتي من الناحية الاقتصادية، وذلك نظرا لمساهمة الجميع لسد الحاجات الأساسية للأسرة حيث كان لزاما على الرجال العمل بالخارج لكسب الرزق وتوفير المال والمأكل والمشرب، في حين تكمن مسؤولية المرأة في الأمور الخاصة بالمنزل وتربية الأولاد، ولم تكن الأسر الكويتية مستغنية عن الخدمات

المتوفرة من قبل الأجداد والجدات في بناء المجتمع الصالح، حيث كانوا يقومون بتربية الجيل القادم تربية، لن يتمكن أي مجتمع من الاستغناء عنها.

المرأة في المجتمع الكويتي

ومما لا أرى شكا فيه أن المرأة الكويتية مند زمن قديم، لعبت دور ربة البيت حيث كانت تنظم أموره إضافة إلى تربية الأولاد، وتعليمهم، لكي يكونوا جيلا صالحا، وكانت شرف الأسرة التي تحمله إلى آخر عمرها، وتشير الروائية ليلى عبدالله العثمان إلى نفس الأعباء، التي كانت تنهك أجسادها، حتى أصبحت لعبة على أيدي الرجال، الذين كانوا يتمتعون بالحرية في أوسع معانيها، وضحايا للبلايا الاجتماعية المفروضة على المجتمع العربي، وذلك عندما يكبر هلال (أخو صفية في الرواية "حكاية صفية")، ويقدر على فهم أسرار الحياة، فيعبر عن آلام قد استقرت قلبه، ووجعته وجعا لا يقدر أحد على تحمله.

"لم يخطر ببالي أن أشك بأمرك يا صفية، صدقتك وكنت رفيقا بك، فسنواتي الأثنتا عشرة لا تسمح لي أن أتطاول عليك، ولا تؤهلني أن أكون ولي أمر له السمع والطاعة. وإلا لكنت تسللت إلى السطح لأكتشف أنك تكذبين. آآآه يا صفية ليتني فعلت لدرأت عنك ظلم نفسك وظلم أبي عليك. لم أكن رجلا كما أراد أبي وفهمت متأخرا لماذا كان يحرضني عليك. فهمت أن نظرة الأب المسؤول غير نظرة الأخ الذي يحب أخته للدرجة التي لا يفكر أن يحميها. لم أكن أستوعب كلمات أبي: (أختك شرفك)حتى عندما قرر عقابك الأ خير ما كنت أعلم أنه بين نارين: إما قتلك

أو سجنك. وربما لو كنت أكبر سنا لأعطاني السكين وأمرني أن أغسل الشرف الذي لوثته وجلبت به العار. الآن يا صفية أشعر بالشفقة على أبي وإن كنت لا أغفر له أشكال التعذيب التي مارسها عليك. كيف لم استطع أن يقومك بطريقة تحميك وتحفظ له ماء وجهه وكرامته؟ لماذا لم يصر على موقفه ويجبر أبو حسين أن يزوجك لابنه؟ حتى اليوم أستغرب لماذا يفعل ذلك؟ هل عزت عليه نفسه أن يزوجك لابن السماك؟ أم كان يكرهك للحد الذي أراد أن يحرمك المتعة ليؤذيك بكل ما أوتي من قسوة وقوة! أم هو قدرك المكتوب في لوحك بحروف سوداء؟[5]".

ولم تكن تتمتع بحرية، تمكنها من حضور الدرس، حتى في المدارس التقليدية، وذلك لأن المجتمع لم يحس بضرورة تعليم البنات مع البنين لكي تقدري على التكاتف معهم في شتى مجالات الحياة، فكانت جدران بيوت الآباء والأزواج دنياها،وكان اختلاس النظر إلى عالم آخر وراء الجدران من خلال ثقوبها حراما عليهن.

وتأييدا لهذه الواقعية في المجتمع الكويتي، تجدر الإشارة إلى الحوار بين جاشم عباس و السيدة بيبي الفرمن (ابنة البحار وحفيدة المتخصص في ربط الشراع وهي كانت من الرعيل الأول في الكويت قد عاشوا فترتي ما قبل النفط وما بعده وجاهدوا في سبيل تحقيق أحلام آبائهم) للجريدة "القبس" فتتحدث عن مدرسهم الذي كان له الفضل الكبير، الأستاذ المربي عبد العزيز عبد المحسن

[5]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 161

العنجزي مدرس قديم، صاحب تخصصات متنوعة لغة وقرآنا وحسابا، وتقول "كان يجمعنا عصر كل يوم في منطقة القبلة، يضع البنات في المقدمة والأولاد في الخلف مستعينا في شرحة بسبورة نصبها في وسط الحوش، كان يعلم ويربي ويوضح الكثير لربط البيت بالمدرسة والمجتمع، ولكن للأسف كان والدي لا يؤمن بدراسة البنات وتعليمهن. وكان يكرر دائما "عيب على البنت أن تخرج من بيتها وتتعلم" وكنت أدرس في غيابه عندما يذهب إلى البحر أو العشيرج لكسر الصخر، وأحيانا كنت أذهب إلى الكنيسة إلى عند أم خليل "القسية" أتعلم الخياطة والتطريز والطباخ وفي النهاية تعلمت في مدارس محو الأمية[6].

هذا والنماذج العديدة التي تشير إلى التمييز بين الرجل والمرأة في المجتمع الكويتي ولكن هذا التمييز لم يكن إلا لتلبية للواجبات المفروضة على الفرد تجاه الأسرة والمجتمع، فكانت المرأة في المجتمع الكويتي مسؤولة عن الشؤون داخل جدران البيت وتربية الأولاد على القيم الدينية، لكى يقدروا على خلق البيئة الإسلامية المثالية، وهذا يدل على أنها كانت على الإلمام بهذه القيم المثالية التي يحتاج إليها الفرد للنجاح في الحياة.

التغير الاقتصادي: الحياة الكويتية بعد اكتشاف النفط

لم يكن لأي شيئ أثر أعمق في حياة الشعب العربي عامة والشعب الكويتي خاصة من اكتشاف النفط في هذه البقعة من الأرض، بالإضافة إلى كونه ذا أثر

[6]- جريدة القبس، بيبي الفرمن: اللهم أعد إلينا أيام الفرجان، العدد المنشور في الثامن عشر من ابريل 2008م

أبعد مما توقعناه خلال العقود العشرة الأخيرة، فقدغير مجرى حياة أهلها تغييرا، لا يوجد له مثال في تاريخ الأمة العربية، إلا في العهد النبوي، لكن الفرق بين هذا وذاك عظيم، وذلك لأن التغير الاجتماعي في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان نتيجة التغير الفكري العظيم الذي قد وقع في نفوس الجمهور الذين كانوا يعانون مشكلة الإفلاس الفكري والديني، أما التغير الاجتماعي الواقع في وسط القرن العشرين في الخليج العربي، فلم يكن إلا وليدة التحول الاقتصادي العظيم الذي حصلت عليه المنطقة.

ومن الجدير بالذكر أن دولة الكويت بعد اكتشاف النفط، تطورت تطورا لا نظير له في تاريخها، وأصبحت علامة النمو والازدهار وضربت الأمثلة التي تتمثل بنجاحها كدولة، وقد حدثت التغيرات في شتى مجالات الحياة، كما تغيرت مسؤوليات الفرد تجاه الأسرة والمجتمع مع تغير الأوضاع الاقتصادية في البلد، وأصبحت الأمور أكثر منظمة مما كانت في العهد ما قبل النفط، وبدأت الحكومة تضمن مستقبل المواطنين، وذلك عنطريق تعليم أبنائها بدون التمييز على أساس الجنس والدين والجنسية.

ولكن من المؤسف أن أثر هذا التحول الاجتماعي لم يظهر إلا بعد مر خمسين عاما، ولم تبذل الجهود المطلوبة في تمكين المرأة من التكاتف مع الرجال في جميع الأمور، والتمتع بالحرية الشاملة بأكمل معانيها وأجمل صورها، وهي الحقيقة أن المجتمع في زمان أو مكان ما، لا يسمح بالتغير الاجتماعي المفاجئ بل يحتاج إلى عقود

وعصور لتحقيق الأحلام وتشييدها على أنقاض المعتقدات والخرافات المتعفنة التي لا مجال لها فيه.

وفيه أرى ضرورة تمثيل المجتمع الكويتي بالمجتمع الهندي الذي عانى نفس القضايا، بل أكثر في معاناتها ولا يزال يعاني حتى بعد مرور العصور والمرأة فيه، لم تكن إلا وسيلة لإشباع الرغبات الجنسية، بل هي كانت مجرد وسيلة لتسهيل الحياة في جميع منحنياتها واستخدامها كأداة مثل أدوات مختلفة يمتلكها المرء لا لأنها تكمل الحياة بل لأنها تسد بها الحاجات، والأمر الذي كان أكثر إيلاما، هو أنها كانت ملكية قابلة للمبادلة في حالة، تقتضي بها الأوضاع.

كانت الأمور عليه، حتى رأى البعض ضرورة إعطائها حق الفرد في المجتمع وجميع الحقوق الباقية، التي يتمتع بها الرجال في نفس المجتمع منذ عصور، ولو أن هذه الجهود كانت قد تأخرت العهود،قد عمت حتى شملت الجميع في هذه المهمة. لقد رفع الكثير دعواهم ضد الأديان والحكومات لكي تتمتع المرأة بالحرية ولم تكن هذه الجهود إلا سلسلة، تنتمي أصولها إلى تلك التي بذلها الأوربيون في بداية القرن السابع عشر، وذلك في ضوء حاجاتهم إلى العمال الأكثر في تحقيق أحلامهم إثر الثورة الصناعية في أوربا، فدعاها إلى انتزاع الحرية من الذين قيدوها عبر العصور باسم الدين والعقيدة، والإعلان عن قدراتها على التكاتف مع الرجال في شتى مجالات الحياة، فثارت، وكافحت في سبيل إثبات وجودها كعضو في المجتمع مثل عضاء الآخرين من الرجال ضد سائر أرباب العقائد والأديان، والموجة التي

عصفت بدول أوربا جميعا، قد انتشرت حتى وصلت إلى أنحاء العالم، وتحدت الملوك والأمراء حتى خضعوا أمام بسلها وارتموا على قدميها اعترافا بالحقوق الخاصة لها.

وطبعا، وصلت الموجة الغربية التي قد كانت هزت الحكومات وأهاليها في أوربا إلى البلاد العربية، وذلك من خلال الاحتكاك العربي بالحضارة الغربية مباشرة أو عن طرق أخرى متواجدة مثل الأدب والفن والسياحة، ولم تصل إلى دولة الكويت إلا بعد اكتشاف النفط، لأن الحياة الجديدة كانت تستدعي ذلك للضرورة، ولم تظهر آثارها في المجتمع حتى عام 1953م، ولكن في نفس العام، انعقدت أول ندوة لمناقشة قضية المرأة الكويتية والسفور تحت رعاية صاحبات الأمر بالخصوص شيخة الحميضي، وغنية المرزوق، وهند سليمان المسلم، وشيخة أحمد العناجر.

وبعد مدة قصيرة، شهدت الدولة نشأة الجيل الجديد، الذين لم يكن لهم الانتماء إلى دينهم، مثلما كان آبائهم منتمين إليه شدة واعتصاما، فغلبت عليهم الأفكار الغربية، ولم يعد أبنائها يعتزون بالقيم الدينية المثلى، التي كانت علامة الاعتزاز لآبائهم، الذين ضحوا بأنفسهم وأموالهم للحفاظ عليها والافتخار بها عبر العصور.

الفصل الثاني

حياة ليلى العثمان

ولادتها ونشأتها

فتحت ليلى عبدالله العثمان عينيها في عائلة كويتية كبيرة، وهي عائلة العثمان، التي كانت تهتم بالأدب، وكان والدها عبدالله العثمان يتمتع بشهرة واسعة في الكويت، وولدت عام 1943 م، وكانت ابنة رابعة بعد ثلاث أخوات، وأمها التي كانت تتمنى أن تنجب صبيا، ولتتورع عن محاولة رميها من النافذة... لكن تدخل الممرضة حال دون ذلك. "لي حياة جديدة. لم أغرق في البحر كما فرقت وسميرة"، كما تقول كاتبة "سميرة تخرج من البحر". وسيرة الولادة تلك، ستتسلل إلى كتابات الأديبة الكويتية، لتصبح أعمالها إعادة إنتاج دائمة للعنة الطفولة، وبدأت الكتابة و هي على مقاعد الدراسة، ثم بدأت النشر في

الصحف المحلية منذ عام 1965م في القضايا الأدبية و الاجتماعية، و التزمت منذ ذلك الحين ببعض زوايا أسبوعية و يومية في الصحافة المحلية و العربية و لا تزال، و لها العديد من القصص و الروايات، التي ترجمت بعضها إلى لغات عدة مثل ترجمة روايتها "وسمية تخرج من البحر" إلى الإيطالية، وذلك لاختيارها ضمن أفضل مائة رواية عربية للقرن العشرين، وسوف أذكر تفاصيلها في الفصل الثالث.

وكانت ولادة هذه الكاتبة تتزامن مع التحول الاقتصادي العظيم،الذي شهدته الكويت،ونشأت نشأة تخلو من تدليل الأبوين، وعاشت عيشة مليئة بالأشواك، والحياة بالنسبة لها خلف جدران البيت، لم تكن إلا علامة الحرمان، فحرمت من التعليم، ومعه حرمت من الأجنحة التي قد تطير بها إلى الآفاق الواسعة، إنما تلقت دراستها الثانوية، ثم انحصرت خلف الجدران، لكي تحفظ شرف الأسرة، الذي قد أنهك الأجساد منذ عهد بعيد، وحرمت عليها الأجواء الملائمة لنشأة الجسد والعقل بسبب الطلاق بين أبويها، عندما كانت في الثالثة من عمرها[7].

[7]. صحيفة اليوم السابع ، الكويتية ليلى العثمان تقدم سيرتها الذاتية خلال أمسية في رام الله ، نشر في 18 فبراير 2014م

وخلال الحوار أمام جمهور متحف محمود درويش في رام الله ضمن برنامج "مبدع في حضرة درويش"، عبرت السيدة عن الآلام التي استقرت في قلبها طول عمرها فقالت:

"كنت طفلة غير محبوبة بغير ذنب وعندي موهبة يريدون موتها.....عانيت قسوة الأب وقسوة الأم".[8]

وأوضحت السيدة ليلى العثمان "كاتبة 22 مؤلفا بين رواية وقصة"، أسرار إبداعها الأدبي، رغم حرمانها من حضور المدرسة، قائلة إن "الأسى الذي عشت به خلق منى الكاتبة.....الألم يساعد على الإبداع".[9]

وأضافت قائلة "إن والدها قتل أحلامها فى الرسم وتعلم البيان والتمثيل ولم تستطع أن تنشر ما كانت تكتب إلا بعد وفاة والدها رغم زواجها".[10]

وفي مقابلة للجريدة "ديوان العرب"تعر ِف على نفسها قائلة "أنا عشت في زمن النكبة الفلسطينية وزمن النفط ولكننا بقينا في البيوت القديمة وعشت في المدينة القديمة داخل السور فترة لابأس بها، بعدها انتقلنا خارج السور، فالكويت لها سور يحيط بها وللسور بوابات، وتسنى لي أن أعرف المدينة القديمة بأحيائها الثلاثة الرئيسة، لهذا ترد في أدبي تلك الصور، والدي كان متزوجا ً بأكثر من امرأة،

---

[8]. نفس المرجع

[9]. نفس المرجع

[10]. نفس المرجع

فكنت أعيش في منطقة الشرق، وكان يأخذنا عند إحدى زوجاته في منطقة أخرى، فتعذبنا ثم ينقلنا إلى زوجته الثانية في منطقة (قبله)، ثم إلى منطقة اللظاظ، بالتالي عشت في الأطراف الثلاثة، ثم قلت إنني عشت حياة صحراء، وعندما طلقت أمي فرت بنا وهربت إلى الصحراء وكان والدي لا يعرف مكاننا.

بالنسبة لي عشت جو الصحراء بكل تفاصيلها، وعشت جو البحر أيضاً بكل تفاصيله فصار عندي هذا التلاقح بين البيئتين، ولكني أحن كثيراً للمدينة القديمة، ومازالت خريطة المدينة القديمة في ذهني، فحين أزور المكان، أتذكر بالضبط أماكن الدكاكين والشوارع وغيرها، وباستطاعتي أن أرسم كل البيوت التي عشت فيها بتفاصيلها أيضاً "[11]

تعليمها

لم تسمح لها الظروف الاجتماعية في الكويت بتلقي الدرس على المنهج الدراسي أكثر من الدرجة الثانوية، وانحصرت خلف الجدران، قبل أن ينفتح عقلها، ولكنها واصلت في مشاهدة الممارسات الاجتماعية والتجربات الإنسانية، حتى تعلمت ما تعلمت من أشياء، لن يتمكن من تعلمها إلا من له موهبة عظيمة.

ومن العجب للغاية أن العوائق الحائلة دون أحلامها، لم تتمكن من كسر عزائمها، بل سببت في تشجيعها على المضي قدما والمواصلة في الكفاح ضدها طيلة

[11]-ديوان العرب – ليلى العثمان ' نشر في يونيو 2006 م

عمرها، فلم تتوقف قط، وسارت تتحدى المنظمات وأرباب الحل والعقد من خلال كتاباتها الجريئة، حتى لم تبال بالعقوبات التي قد تفرض عليها بسببها.

قد تفيد الإشارة إلى الشاعر الرومانسي البريطاني العظيم "وليم وردس ورت" الذي يعتبر في طليعة أدباء الإنجليزية وأقدر كتابها وصاحب طريقة وأسلوب فيها، ويتميز بأدبه الرومانسي رغم حرمانهما من العلوم المعاصرة، فيرى الطبيعة أقدر الأساتذة في العالم كله، وهي التي علمته دروس الحب والحنان، وكشفت عن أسرار الكون والمكان، حتى أصبح يغني غناء يعبر فيه عن جمال الطبيعة وكمالها. أما بالنسبة للأدبية ليلى العثمان فهي التي أصبحت فريسة لقسوة المجتمع وظلمه، حتى اجبرت على الكتابة ضد المعتقدات والممارسات، التي قد أضعفت المجتمع العربي منذ عصور، فرأت تحريم البنات من التعليم وتقييدهن وراء الجدران أسوأ طرق الظلم عليهن، لأن حرمانهن من السلاح الأقوى ضد كافة الآفات الاجتماعية، قد حال دون أحلامهن، وأجبرهن على الحبو مثل طائر بلا جناح.

وتكشف الكاتبة عن الخطوات التي ساعدت على تحويلها من بنت عادية إلى كاتبة شهيرة، فتقول: "أتت بالكتابة والرسم على الجدران باكرا ً .. كانت تلك وسيلتها لتقاوم العذاب والضرب، وتنسى غياب الأب الموزع بين بيوت عدة وزوجات. دخولها المدرسة، مث ّل نقلة ً في حياتها، تلتوت المدر ّ ِسات مواهبها. صارت بطلة مسرحيات بسيطة، كانت تكتبها لفريق التمثيل في المدرسة.

غالبا ً" ما يسألونني لو لم تكوني كاتبة، ماذا كنت ستختارين؟ وأجيب دوما ً : ممثلة مسرحي ّة"لكن ّ صاحبة "ليلة القهرتل ّقت الصفعة، حين قرر والدها إخراجها من المدرستجرّت العادة في الكويت قديما ً أن تلزم البنت المنزل، بعد زواج الأخوات الأكبر سنا ً ، كي يعرف الناس ويتقدموا لخطبتها."ذكاؤها وإصرارها على التعل ّم، جعلا والدها الشاعر عبد الله العثمان وصاحب المنتدى الأدبي الشهير في الكويت، يفتح لها مكتبته. حثها على قراءة الأدب والكتابةتكونين شاعرة ً كبيرة في المستقبل"، قال لهتبتسم وهي تتذكر ذلك، لكن ّ ابتسامتها تختفي بسرعة: "كان يرفض أن أحضر منتداه الأدبي، بل رفض أن أنشر مقالات باسمي، كي لا يعرف الناس أن ّ فلانة بنت فلان تكتب في الصحف."

ورغم وجود العوائق في سبيلها إلى الحصول على الشهادات العلمية الكثيرة وتعليقها على جدران البيت، تعلمت ما تعلمت من نفسية الإنسان وعاداته وتقاليده، حتى تفوقت فيه، فنراها في مقدمة الكتاب، الذين أمسكوا بالقلم، ورسموا حياة المرأة على القرطاس بكل أنغامها وآلامها، وكافحوا في سبيل استقلالها.

ومما لا ريب فيه أن حياة هذه الكاتبة بنفسها في مجتمع كويتي، يحافظ على القيم الدينية أكثر من أي شيئ، كانت مثل السجينة التي ترغب في اقتحام الأسوار الاجتماعية، واكتشاف أسرار الكون، ولكن أجنحتها كانت منكسرة، لا تستطيع العبور إلى الآفاق الواسعة، وعينيها محجوبة، لا تقدر على لفت النظر إلى الحياة ما وراء الجدران، ومنذ أيام طفولتها، كانت تبحث عن بيئة ملائمة للكتابة بالنسبة لها،

لأنها لم تكن قادرة على استخدام اسمها الحقيقي في الجرائد والمجلات، التي كانت تنشر كتاباتها، وكانت مضطرة على استعارة اسم آخر للكتابة تلبية لأوامر الأب، الذي كان الشرف أحب إليه من حرية ابنتها.

حياتها العائلية

كان والدها متزوجا بأكثر من امرأة وعاصرت الكاتبة زمن النكبة الفلسطينية وزمن النفط، وبقيت في البيوت القديمة، وعاشت بها لفترة لا بأس بها، فتعرفت علي المدينة القديمة وحياتها، وعندما طلق أبوها أمها، فرت الأخيرة بهن، وهربت إلى الصحراء، ولم يكن والدها يعرف مكانهن.

عاشت جو الصحراء بكل تفاصيلهما فصار عندها هذا التلاقح بين البيئتين، ولكنها كما تقول تحن كثيرا إلى المدينة القديمة، لهذا ما زالت خريطة المدينة القديمة في ذهنها، وأثر هذه البيئات الثلاث واضح في كتاباتها الأدبية.

لقد عانت الكاتبة كثيرا في حياتها، فبجانب حرمانها من التعليم الجامعي، عانت من قسوة زوجة الأب، وزوجة الأخ، وعانت أيضا من ضغوطات أبيها وأخيها، ولكنها في المقابل جربت حنان زوجة الأب، وكانت تراها كما قالت أكثر حنانا من أمها-علما أن أباها متزوج من غير امرأة، وقد رسمت تلك الصور في أعمالها الأدبية.

ولكن زواجها مع طبيب فلسطيني عام 1965م، لم يكن إلا خطوة جريئة في الطريق إلى الحرية من التقاليد الاجتماعية، لأن تزويج البنات بغير أبناء العم في المجتمع المحافظ، كان أمرا يجلب العار للأسرة، ولذا أثار الضجة في أنحاء البلد، ولكنها بعد الزواج، دخلت العالم الآخر، وأمضت شهر العسل في أوروبللم تهتم ـ في تلك الفترة بمعالم البلدان، التي كانت تعبرها: "المهم الحرية والانطلاق. كنت أصرخ وأرقص في الشارع. كنت طفلة في الثامنة عشرة تكتشف العالم"[12]. شجعها زوجها على النشر في الصحف، وخصوصا ـ إثر وفاة والدها بعد مرور فترة قصيرة على زواجها. تفرد يديها وهي تصف تلك الحادثة:"أحسست كأن ـ ني عصفورة، نبتت لي أجنحةكان يضغط علي ـ حتى بعد زواجي. كان يطلب من زوجي أن يمنعني من الكتابة"[13]. ورزقت منه بأربع بنات، وتوفي وكان عمر أكبر بناتها سبع سنوات، وعمر أصغرهن سنتان، توقفت بعدها عن الكتابة، ولما وجدت الكتابة لا تتعارض مع تربية الأولاد، تفرغت لهما معا، مستعينة بالتركة الكبيرة التي تركها لها والدها.

---

[12]-الأخبار-ليلى العثمان: الكاتبة الكويتية التي قفزت فوق سور الحريم ' نشر في 27 كانون الأول 2001 م

[13]- المرجع السابق

ولكن حريتها بأجمل معانيها كانت يوم وفاة أبيها، لأنها قد ضمت لها الحياة الخالية من القيود، فعبرت عن نفس المشاعر في حوار مع مريم عبد الله المنشور في الجريدة "الأخبار": والدى كان يضغط على زوجى، حتى لا أكتب فى الصحف والمجلات، وعندما توفى والدى "كنت مثل عصفورة وطلعت بأجنحة كتبت بجرأة. الكبت الذي كان بداخلي قد انفجر" وبعد أسبوع من وفاته ، كان اسم ليلى العثمان في صحف عد ٍ بيق وجدانيات، وأشعار، مقالات اجتماعية، صارت تكتب عمودا ً وميا ً في جريدة "السياسة". وبدأت شهرتها تتسع مع صدور باكورتها القصصية "امرأة في إناء"، وروايتها الأولى "المرأة والقطة".

أما زواجها مع وليد أبوبكر الكاتب والإعلامي الشهير الفلسطيني فقد فتح له أبواب الرحلات والتجربات، التي قد أثرت معلوماتها حول القضايا الإنسانية الأخرى، التي كانت نتيجة الحرب القاسية بين الكويت والعراق والنكبة الفلسطينية، التي قد هزت العالم العربي تماما سوى الملوك والأمراء العرب. كان ينشر لها ما تكتبه في الصفحة الثقافية، حينما كان مسؤولا في جريدة، ولكنهما انفصلا عن بعضهما بسبب الغزو العراقي على الكويت، وقد أنجبت منه ابنين، ولهذا نجد صور فلسطينية في رواياتها صورا مشرقة خيرة طيبة.

الحياة مع الأولاد الستة والأحفاد الخمسة تعطيها الشعور بالفرح والطمأنية كما تقول: "أعيش طفولة جديدة مع أحفادي، حياتي فيها فعلا وسكما حق ّ قت ُ الحلم بأن أكون كاتبة ً ، ومحبوبة".

حياتها العملية

وكان العمل في المكاتب والمؤسسات بالنسبة للمرأة التي لم تكن تحظي بحرية الحضور في المدرسة، وكانت يمنع عليها الخروج إلى السوق والسينما[14]، حلم الذي جن عليه الجنون، ولكن الأوضاع الاجتماعية بدأت تتغير بتغير الوضع الاقتصادي في البلاد، واكتشاف النفط كان له الفضل الأكبر في هذا التغير.

فعملت الكاتبة في وزارة الأعلام عام 1978م بمجلة الكويت ثم استقالت، وعملت في المذياع لمدة خمس عشرة سنة وقدمت عددا من البرامج الأدبية والاجتماعية في أجهزة الإعلام: إذاعة، وتلفازا، كبرنامج (خليك في البيت)، وبرنامج (حوار العمر). وتولت أمير سر رابطة الأدباء الكويتية لدورتين لمدة أربع أعوام[15] وربما هذه الأعوام التي قضتها معاملة مع الشخصيات العالمية، منحت لها الفرصة في توسيع آفاقها العلمية والأدبية والتبادل الفكري العالمي والتوصل إلى الأدب غير العربي مثل الروسي والياباني.

زارت الكثير من البلدان العربية والأجنبية للمشاركة في المؤتمرات والندوات، فشاركت في أكثر من ستين مؤتمرا: محليا وعربيا وعالميا.

---

[14]- الأخبار- ليلى العثمان: الكاتبة الكويتية التي قفزت فوق سور الحريم ، نشر في

[15]- موقع "الأدب" نبذة حول الأديبة : ليلى العثمان

في عام 2004م، خصصت الكاتبة جائزة أدبية تحت مسمى (جائزة ليلى العثمان لإبداع الشباب في القصة والرواية)، وهي تقدم للمبدعين الجدد من الشباب الكوتيين من الجنسين كل عامين.

الجوائز والعضويات

الأوسمة لا تقدر قيمة الأدب. إنما هي إشارة إلى مدى تأثيره في النفوس ذات الذوق الرائع فالأديبة الكويتية ليلى العثمان بسبب كتابتها الجريئة، قد استقرت في قلوب كل من قرأها، والوسام الأكبر بالنسبة لها، هو براعتها في الكتابة إلى درجة، أن الجميع قد اعترفوا بسيادتها في هذا المجال.

بالإضافة إلى فتح القلوب، قد اختيرت روايتها "وسمية تخرج من البحر" ضمن أفضل مائة رواية عربية في القرن الواحد والعشرين، وهي حكاية كتبتها ليلى العثمان متأثرة بالحب الحي في قلب "عبد الله" بطل الرواية. وقد تحولت هذه الرواية إلى عمل تلفازي، شاركت به دولة الكويت في مهرجان الإذاعة والتلفزيون – القاهرة – وقدمت الراوية ذاتها على المسرح ضمن مهرجان المسرح للشباب عام 2007م.

ونالت عن مجموعة قصصية "يحدث كل ليلة" جائزة الكويت للآداب، كما نالت العديد من شهادات التقدير والدروع والميداليات من عدة جهات قد تصل إلى العشرين.

وتمتعت بعضوية لجان، واتحادات، ومنظمات، وجمعيات، ومنتديات، فهي العضو في رابطة الأدباء الكويتية،واتحاد الكتاب العرب، ومنظمة العضو الدولية، وحقوق الإنسان، والمجلس الوطني للثقافة الفنون والآداب، وغيرها من الأنشطة الثقافية والاجتماعية والإنسانية.

الفصل الثالث

أعمالها الأدبية

منذ أن بدأت هذه الكاتبة رحلتها الأدبية في عام 1965م، قد جعلت ولا زالت تجعل قضية "الحرية للجميع" موضوعا لها وسودت بها الأوراق، لكي تصبح خالدة إلى الأبد، ومن كتاباتها الجريئة، قد أثارت جدلا بين الأوساط الأدبية، وبرزت كأحد أعمدة الفكر والأدب وإنتاج المعرفة في منطقة الخليج والجزيرة العربية.

الصعوبات التي قد عانتها هذه الكاتبة، منذ أن فتحت عينيها في سبيل الحرية – حرية تتمكن بها من العلو إلى سماء الأحلام دون تردد -- كانت تنهك المجتمع الكويتي خاصة والمجتمع العربي عامة وسرعان ما وجدت الفرصة للتعبير عن مشاعرها ومشاعر المرأة الكويتية، اتخذت القلم والقرطاس أسلحة لها، وهدمت التقاليد والخرافات السائدة آنذاك، ولم تكن هي أول من تحداها بل كانت قد سبقتها الشخصيات العديدة مثل فاضل خلف، وغنيمة المرزوق، وسعاد الحمد ولكنها كانت أشد مما سبقت أسمائهم في التمرد عليها و أصدقهم في البيان.

ومن الأمر المتفق عليه الجميع، أن السبيل للمتمردين على التقاليد وممارسات الآباء والأجداد، لن يكون مملوءا بالورد،بل تنبت فيه الأ شواك، التي قد تجرح القلوب والأجساد، ولو أنها كانت على الإلمام بجميع الأخطار التي سوف

تلاحقها، بعد أن ظهرت آثار التمرد فيها، اختارت هذا السبيل وكافحت لنفسها ولجميع من يئس من مستقبله البائس، حتى استمع العالم نداء مختنقا عن طريق كتاباتها الحرة التي لا يوجد لها مثال إلا قليلا في تاريخ الأدب العربي عبر العصور.

وربما تجنب الأدباء عبر قرون عن هذا الموضوع - أي التمرد على التقاليد والثورة على البدع والخرافات والكفاح في سبيل الحرية من أغلال وقيود مفروضة من قبل أرباب الحل والعقد - خشية من المحاكمات والتطاول من ناحية، ولغياب القضاء النزيه والعادل في كثير من الأقطار العربية من ناحية أخرى، وقد كان القرن الواحد والعشرون عربيا ً مسرحا ً للمحاكمات الأدبية. وكانت عقوده الأخيرة بخاصة الأحفل بهذا النوع من المحاكمات والعدوان على العقل: بمطاردات لا تحصى للمشتغلين بالآداب والفنون في كل الأقطار العربية دون استثناء، وتلاحقهم تحت دعاوى وتهم تفضح الجهل بحقيقةبلإع، وما يقتضيه أحيانا ً من شطحات حرة، تدخل في مجال "أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون".[16]

ولم تسلم هذه الكاتبة من التهم والدعاوى ضدها لأن محاكمة الكتب ومحاسبة الكتاب على تعابير أدبية متخيلة، حتمها سياق التخيل الأدبي وفرضها الصدق الأدبي، وهي ظاهرة ليست بجديدة تماما، فقد قضى بعض الكتاب زهرات أيامهم في الأقبية، أو أحرقت أجسادهم على الأعمدة أمام أرباب الدين، حتى يكونوا

---

[16]- الحياة، عبدالعزيز المقالح: ليلى العثمان في رواية "المحاكمة" كوميديا الواقع السوداء وتراجيديته الضاحكة، نشر في العشرين من مايو 2005م

عبرة لمن لايعتبر، وقد شملت الظاهرة مناطق مختلفة من العالم، وفي أزمنة متشابهة فكريا وسياسيا، لكنها مختلفة من حيث المرحلة التاريخية.

وردا على محاكمتها من قبل بعض الدعاة، تقول الكاتبة: "لماذا إصرار بعض الدعاة على أن يتحولوا سلطة، تفرض أحكامها وتتولى قصاص الناس بوسائل شتى؟ لماذا يمارسون حريتهم لإخضاع الآخرين، مخالفين بذلك شريعة الله، الذي كفل الحرية للجميع؟ كثيرا ما تعرضت لهجومات المتزمتين، هجومات ليس من سياستها اللين والنصح بالتي هي أحسن.ورفضت تدخلهم بخصوصياتي. فلاحقوني بوسائل الويل والثبور. سلطوا على أقلامهم في الصحف والمجلات، تعرض لي أحد الأئمة في خطبة يوم الجمعة من أعلى المنبر. اتصلوا ببعض أقاربي يوهمونهم بأنني كافرة وكتاباتي ماجنة تضر بسمعة الأسرة الكبيرة، فما وجدوا إلا تصعير الخدود لهم"[17].

هذه كانت محاكمة الكاتبة ليلى العثمان التي فرضت عليها لكي تخضع أمام رغبات الرجال، ولكنها رفضت، وشعرت بضرورة الجرأة في وجه التمييز والكبت والقهر والاضطهاد، ودافعت عن حريتها وحرية الآخرين بكل جرأة صريحة بعيدة عن الرمز، ولم يكتف هؤلاء الدعاة على تشويه شخصيتها أمام الجمهور بالإضافة إلى أفراد الأسرة، بل زادوا في تعذيبها حتى رموا عليها بتهمة إثارة الجنس بشكل طاغ من خلال كتاباتها وازدراء الأديان، وأدانتها المحكمة الكلية الكويتية عام 2000م لنشرها

[17]- المحاكمة، ليلى العثمان، الغلاف الخلفي

كتابا اعتبرته المحكمة مسيئا إلى الدين والأخلاق، حيث وردت في الكتاب عبارات، تمس الذات الإلهية وعبارات اعتبرها القضاة منافية للآداب ومخلة بالحياء[18]، وقد حكمت عليها المحكمة بالسجن لمدة شهرين، ودفع غرامات مالية، ستكون قيمة الحرية من جديد، مما اعتبره بعض معارضيها نصرا لصالح المجتمع الكويتي المحافظ ولصالح مبادئ الدين الإسلامي والأخلاق الفاضلة.

ردا على السؤال الذي طرحته عناية جابر "للثقافة" حول كتابتها الجريئة والضرورة إليها، تقول الكاتبة: "المسألة غير قصدية تماما ً . أنا أكتب بحرية بحسب ما تمليه علي ّ الحالة التي أخوضها روائيا ً أبدا ً الجنس ليس غاية بحد ذاته، وإلا لكتبت منه الكثير ولكانت تفوقت مبيعاته على كل الكتب التي ننشرها الآن.أكتب بحر ّية أجل، من دون تابوهات أو معو ّقات، وأترك للحالة أن تأخذني إلى حيث يجب أن تأخذني، ولا أتقصد الإثارة هنا، بل العمل الفني اللازم والضروري لمطلق الكتابة[19].

يقول الناقد صلاح فضل في تعليق على تجربة ليلى العثمان المصطدمة مع السلطة والدين "للبوابة نيوز": أعرف أن ليلي العثمان كاتبة موهوبة وشجاعة، ثقفت نفسها بهمة عالية، ودربت قلمها على الكتابة بدأب عظيم، واستطاعت أن تكون واحدة من رائدات تحرير المرأة في الخليج العربي بأكمله .

---

[18]- جريدة البوابة نيوز، بعد سجنها شهرين لأزدراء الأديان، ليلى العثمان تطلق "حكاية صفية، نشر في الرابع عشر من فبراير 2013م

[19]- صحيفة "ثقافات" ، ليلى العثمان: أكتب بحرية ولا أتقصد الإثارة ، نشر في 19 ديسمبر 2013م.

ويضيف: تمتلك العثمان موهبة الحدس الشيق، وحساسية اللغوي الجميل، وقدرة تحويل الكتابة الصحفية إلى صياغات فنية راقية، فهي لم تفصل في كل كتاباتها بين التجارب، التي عانتها في أسرتها وفي محيطها الاجتماعي وبين مادة المتخيل التي حولتها إلى أعمال فنية أدبية"[20].

ويعتبر فضل أنه برغم قضية ازدراء الأديان، التي حوكمت فيها فإنها أثبتت بقلمها قدرة علي المواجهة، فلم تثنها تهديدات المتخلفين ولا ألاعيب المتعصبين، بل استطاعت الانتصار عليهم إيمانا برسالتها وانتصارا لحق المرأة في أن تتقدم صفوف الإبداع، وتكشف زيف الغطاء الأخلاقي والديني الذي يحتمي به المنافقون"[21].

ويشير فضل إلى أن ما يميز ليلى العثمان هو الإخلاص في تناول المشكلات المتصلة بالمرأة بما لا يؤدي إلي الانحصار فيما يسمي بالأدب النسائي، فكلما كانت صادقة في تعبيرها عن خصوصيتها، استطاعت أن تعبر منطقة الأدب النسائي إلى الأدب الإنساني العالمي.

القصة القصيرة

في البداية، كانت تكتب للصحف والمجلات حول القضايا المختلفة مثل حقوق المرأة وقضاياها في المجتمع الكويتي، وضرورة تسليحها بالعلم والفن، ولكن

---

[20]- جريدة البوابة نيوز، بعد سجنها شهرين لأزدراء الأديان، ليلى العثمان تطلق "حكاية صفية، نشر في الرابع عشر من فبراير 2013م

[21]- المرجع السابق

زوايا الصحف والمجلات وأعمدتها لم تكن تطفئ البراكين التي كانت تلتهب في داخلها، فاختارت فن القصة القصيرة للتعبير عن مشاعرها المتمردة على المجتمع وأفراده،وتجدر الإشارة إلى أن معظم قصصها القصيرة تبحث قضايا المرأة، وتكشف عن الثغر المتواجد في المجتمع الكويتي، وتحث أفراد المجتمع وأربابه على سده وقمع نظام الظلم والقهر على المرأة لأنها هي نصف أسرة ومجتمع وبلد.

نشرت مطبعة "ذات السلاسل" أول مجموعة للقصص القصيرة لها، تحمل اسم "امرأة في إناء" عام 1976م، وتمثلت هذه المجموعة نقطة بداية رحلتها الطويلة الشاقة، التي لا تزال مستمرة وبعدها جاءت بالعديد من المجموعات التي نذكرها هنا مع تاريخ نشرها والمطابع التي قامت بنشرها.

1	امرأة في إناء	ذات السلاسل، الكويت	1976م
2	الرحيل	دار الآداب، بيروت	1979م
3	في الليل تأتي العيون	دار الآداب، بيروت	1980م
4	الحب له صور	دار الوطن، الكويت	1982م
5	فتحية تختار موتها	دار الشروق، القاهرة	1987م
6	حالة حب مجنونة	الهيئة العامة للكتاب، القاهرة	1989م

7	55 حكاية قصيرة	شركة الربيعان للنشر والتوزيع، الكويت	1992م
8	الحواجز السوداء	دار القبس، الكويت	1994م
9	زهرة تدخل الحي	دار الآداب، الكويت	1996م
10	يحدث كل ليلة	المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت	1998م
11	حلم غير قابل للكسر(مختارت قصصية)	الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر	2003م
12	ليلة القهر	دار شرقيات، مصر	2005م
13	قصيرة جدا	مطبعة الفيصل	2007م

ويستطيع أحد أن يقيم بسهولة أعمال هذه الكاتبة ودورها في إثراء الأدب العربي الحديث عن طريق مساهماتها الجليلة في فن القصة القصيرة، كما هو قادر على تقدير كل ما قامت به طيلة حياتها من أعمال لم يجرأ بها إلا بعض الذين قد ضاقت عليهم حياتهم إلى درجة أن الثورة عليها أسهل من الصمت. ومعظم أعمال هذه الكاتبة الكويتية تدور حول حياة المرأة في المجتمع العربي وقضاياها ومأساتها التي تؤرقها ولا تسمحها بالمنام وتؤلمها ألما لا مثيل له.

ونظرا إلى أهمية تراثها الأدبي، ترجمت العديد من قصصها القصيرة إلى اللغات العالمية الأجنبية الحية مثل مجموعة قصص إلى اللغة الروسية ضمن كتاب "رياح الخليج"، ومجموعة قصص ترجمت إلى اللغة الانجليزية، ونشرت في مجلات متخصصة، و مجموعة كاملة باللغة الألمانية تحت عنوان "الجدران تتمزق"، عن دار أورينت للنشر، برلين الغربية عام 1988م، ومجموعة ثانية تحت عنوان "زهرة تدخل الحي" عام 1993م.

وعلاوة على ما ذكرته في السطور الأخيرة، أرى ضرورة ذكر بعض أعمالها المترجمة الأخرى، التي لا بد لنا من تسليط الضوء عليها، لكي أتمكن من قياس مدى تأثير أعمالها القصصية في نفوس العرب وغير العرب من القراء وهي كما يلي:

مجموعة باللغة البولندية من مجموعاتها القصصية تحت عنوان "امرأة في إناء" عام 1991م،

مجموعة قصصية مترجمة إلى اللغة اليوغسلافية عام 1985 م، تحت عنوان "في الداخل عالم آخر".

ضمن مختارت لكاتبات من العالم الثالث، ترجمت بعض قصصها إلى اللغة الهولندية، عن دار نشر هيث فيرلد فينشتر، وقد ضمت المجموعة كتابات 22 كاتبة من آسيا وإفريقيا.

ترجمت مجموعة قصص إلى اللغة الفرنسية عن هيئة اليونسكو بعنوان "من مفكرة امرأة"، باريس عام 1997م.

ترجمت مجموعة قصص إلى اللغة الجورجية تحت عنوان " في الليل تأتي العيون" عن دار الصداقة للترجمة والنشر والتوزيع، سوريا، عام 1997م.

ترجمت بعض القصص إلى اللغة الإسبانية في كتاب "كاتبات عربيات" الذي تصدره دار النشر "كومبانيا دي ليتراس" الأسبانية.

ترجمت مجموعتها القصصية "الحواجز السوداء" إلى اللغة الفرنسية، وقام بالترجمة الكاتب الجزائري الكبير مرزاق بطاش.

ترجمت قصة إلى اللغة السويدية في كتاب "قصص مختارة لكاتبات من العالم العربي" تحت عنوان "رائحتي شهية كالنعناع" وقام بترجمتها هنري ديات.

الرواية

وقد تأخرت السيدة ليلى العثمان عن الخوض في هذه المساحة الأدبية، وتجربة حظها في فن "الرواية"، ولم تبدأ كتابتها إلا في بداية الثمانينات، وربما كانت قلة الثقة بنفسها، أو الخبرة في هذا المجال، سبب التأخر عن هذا الفن العظيم، لأن الرواية وسردها تطلب التعمق في اللغة، والمهارة في رسم الصور والشخصيات، أكثر من أي فن من فنون أدبية ولكنها عندما سجلت اسمها من بين الروائيين الجدد بروايتها "المرأة والقطة" عام 1985م، لم تكن هي إلا عبارة عن عمل أدبي

ناضج خال من التعقيد اللفظي والمعنوي وقد شهدت الأوساط الأدبية نشأة روائية عظيمة على أرض، تحفل دوما بالأجيال التي تهتم بالأدب والأدباء.

وهذه الرواية "المرأة والقطة" التي تقع في 85 صفحة، تعبر عن تجارب الإنسان ورؤيته الخاصة إلى العلاقات الأخرى التي تجوس خلال مخيلته وذاكرته.

والرواية الثانية "وسمية تخرج من البحر" قد جلبت لها السمعة الواسعة التي لا يتمتع بها إلا من له موهبة ممتازة في فن الرواية، وصدرت الطبعة الأولى للرواية عام 1986م عن دار شركة الربيعان للنشر والتوزيع، أما الطبعة الثانية والثالثة فقد صدرت عن دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع عام 1995م وعام 2000م.

تقع الرواية في 157 صفحة، ولقد ترجمت إلى الإيطالية، وتعد من أفضل 150 رواية عربية ضمن تقييم عام 1996م حيث حصلت على المركز 55، كما حصلت على المركز الثالث على المستوى الخليجي، وذلك ضمن قائمة، أصدرها إتحاد الكتاب العرب بدمشق لأفضل أعمال القرن العشرين.

تم تحويل الرواية إلى سهرة تلفزيونية للمخرج: عبد العزيز الحداد من بطولة الفنانة : سعاد عبدالله والفنان: خالد أمين عام 1996م وحصل هذا العمل على جائزة أفضل ممثل عن دور الفنانة : سعاد عبدالله من مهرجان القاهرة للإذاعة والتلفزيون، كما كان للمسرح كذلك نصيب من الرواية حيث قدم المسرح مسرحية

تحمل ذات الاسم "وسمية تخرج من البحر"من إعداد وإخراج: دار النصر عام 2007م، كما أشار المخرج التونسي رضا الباهي على استئناف تعاونه مع الروائية ليلى العثمان لتحويل أحد أعمالها إلى فيلم روائي.

ومن الأعمال الروائية الأخرى التي ظهرت في بداية القرن الواحد والعشرين "العصعص" (دار المدى عام 2002م) و"صمت الفراشات" (دار الآداب 2007م) وهما تتناولان قضايا اجتماعية متعددة مثل طبقية المجتمعات العربية عامة، والمجتمع الكويتي خاصة، وظاهرة تخاذل المرأة تجاه الظلم على أيدي المجتمع أو أفراده.

والروايات الأخيرة الثلاث "خذها...لا أريدها" (دار الآداب، بيروت عام 2009م)، و"حلم الليلة الأولى" (دار الآداب، بيروت 2010م)، و"حكاية صفية" (دار الآداب، بيروت 2013م) تلقي الضوء على المجتمع الكويتي بكل تفاصيله وتكشف عن مرارة الحياة التي تذوقها المرأة الكويتية ليلا ونهارا، ومن خلال هذه الروايات، تود الكاتبة أن ترفع أصوات كل من لا يقدر على رفعها بسبب ما، وتعطي قدرة النطق لكل من حرم منها، وهي شهادة على إتقانها في اللغة والفن، ومهارتها في تصوير الأماكن والشخصيات والأزمنة، وحتى في تقديمها كرسائل الحب والحنان من قلب استقر فيه الألم، إلى قلوب الملايين الذين يعانون نفس القضايا، التي تعانيها شخصيات هذه الروايات، ويشعرون بأن أشرطة حياتهم السينمائية قد بدأت تدور من جديد على أوراق هذه الروايات.

السيرة وأدب الرحلات والحرب

بلا قيود.....دعوني أتكلم (دار الحدث للصحافة، الكويت 1999م)

تعبر الأديبة ليلى العثمان من خلال هذا العمل الأدبي عن مشاعرها وأمنياتها ككاتبة، وترغب في أن تكتب بحرية، وتحلم بحرية، حتى لا يحول أي فرد أو نظام دون أحلامها التي رأتها في المنام حتى كبرت وأصبحت جزءا غير منفك لحياتها، فهي ليست وحيدة في البحث عن أحلى شعور على الأرض، وهو الشعور بالحرية، بل هي من الذين رفضوا سياسة الصمت مثل الفراشات، وكافحوا ضد القهر عليهم، وجادلوا حتى أثبتوا وجودهم.

المحاكمة.....مقطع من سيرة الواقع (دار المدى، دمشق 2000م)

تعرضت الأديبة ليلى العثمان لأزمات عديدة بسبب مؤلفاتها، وما تحويه من آراء، أثارت البعض، ومن أشهر فصول الأزمات التي تعرضت لها، ما حدث عام 2000م، إذ وقفت الروائية الكويتية أمام المحكمة بتهمة كتابة أدب، يتضمن "عبارات تخدش الحياء العام" ووصفوا بعض قصص الكاتبة بالأدب المكشوف، وحكم على ليلى العثمان بالسجن لمدة شهرين مع وقف التنفيذ، وبدفع غرامة مالية مقدارها 50 دينارا .

سطرت الراوئية الكويتية تجربتها تلك في كتاب "المحاكمة" الذي اتخذ شكلا روائيا ، وصدر عن دار المدى في دمشق، ومنع لفترة من دخول الكويت، بعد أن رأى النور في عام 2003م،وتسجل ليلى العثمان في كتابها الأزمة التي تعرضت لها من

لحظة استدعائها من قبل أمن الدولة بين يدي القضاء الكويتي، ومن بداية الاتهام حتى صدور الحكم وتنفيذه.

أيام في اليمن (مطبعة الملك، الكويت 2004م)

هذا الكتاب في الرحلة إلى اليمن يتناول ذكريات ليلى العثمان الحلوة التي تزين شفتيها بالابتسامة كلما تتفكر فيها، وفي كتابه "أيام في اليمن" تخبر عن الأهمية التي تحظي بها اليمن في أعينها، والأسباب التي لعبت دورا هاما في تفضيلها إياها على الوجهات الأخرى، فتقول:

"في اليمن نسيت كل أحزاني، نسيت وجه رجل أحببته، ولا يزال يتربع في قلبي وقلب أولادي، لأنني هناك أحببت كل الوجوه، فاتسع القلب لها، وأحببت كل الأمكنة، فتمددت بروحي على عشبها وترابها وحنان قلوب ناسها، الذين كانوا كرماء في هداياهم في كل مكان نزوره. كما كانوا كرماء بالحب والترحيب".

يوميات الصبر والمر (مطبعة الملك، الكويت 2003م)

هذا الكتاب مذكرات عن الغزو العراقي الغاشم، وسجلت فيه الأحداث التي وقعت قبل الغزو بأشهر وما بعده على الصعيد الأسري، كسفرها وحب ابنتها وخطبتها والتجهيز لتزويجها وأحلامها التي كانت لا تبشر بالخير، أما على الصعيد المحلي فسجلت فيه واقع التهديدات العراقية وادعائهم.

كما ذكرت لنا فيه العديد من المواقف التي شهدتها بالغزو قبله وبعده سواء مع عراقيين من جنود أو شعب، مبينة لنا أن هناك العديد منهم الذين كانوا رافضين لهذا الاعتداء، وحتى بعض الأكراد، ومواقف أخرى مع فلسطينيين لأنها كانت مرتبطة بفلسطيني.

تحدثت لنا كأم،أبعدت الحرب عنها ابنها نتيجة لسفره وعدم قدرته على العودة، وتهريبها ابنتها نتيجة لمحاكمتها العسكرية بعد أن أثبتت عليها تهمة توزيع دوية للكويتيين، خوفا على ابنتها من الاعتداءات وخصوصا طفلتها سرار وسارة.

الشعر

شعر ليلى العثمان لا يتمتع بشعبية مثل قصصها ورواياتها، ولكنها قد وطأت أرض هذا الفن، وقرضت قصائد متبعثرة في أوراق مذكرتها في موضوعات شتى، حتى بعد انتظار طويل جمعتها تحت عنوان "وردة الليل" عام 2008م، والتي تتضمن أكثر من عشرين قصيدة شعرية، كتبتها الأديبة على مدى سنوات عديدة، ولكنها آثرت عدم نشرها حتى الآن لخصوصيتها وأهميتها لدى الكاتبة.

وصرحت الأديبة "أن هذا الكتاب هو ليس بديوان شعري بل هو ليس سوى وشوشات فراشات وزخات مطر لحالات حب عاقلة ومجنونة كانت تفاجيء القلب المستكين فتقرع أجراسه النائمة لتهب أسراب العصافير، ترقص الأشجار، يتلون البحر، ويصير القلب نهرا تفيض منه عرائس السحر والمشاعر الدافئة، فلا يتسع

الكون لاحتواء هذا الفيض بقدر ما تتسع اللغة فتلوذ اليها، فتقتطف من حدائقها ما يمكنها من صوغ الدفقات المشتعلة[22].

وهذا من موضوعة تتصل بالمرأة الكويتية، والمرأة العربية طبعا، إلا طرقتها العثمان بشجاعة نادرة، وانحياز واضح للمرأة التي عانت القهر والإذلال قرونا، وبأسلوب لا يتحرج ولا يتخفى، يلتحدق في إيقاع رشيق، ومجاز مبتكر، يذكر دائما بالعثمان الشاعرة في بداية طريقها الإبداعي"[23].

وهذا ما تقول السيدة الناقدة الكويتية سعاد العنزي اعترافا بما قامت به السيدة ليلى العثمان من أعمال لم يجترأ عليها إلا قليلا: "قامت ليلى العثمان بالحفر في بنى القهر الاجتماعي الموجه للمرأة، فهي سجلت في فضائها الروائي الكثير من تفاصيل قهر المرأة والرجل في كويت الماضي"[24].

---

[22]- مجلة دار الخليج، "وردة الليل" أول مجموعة شعرية لليلى العثمان، نشر في الثاني والعشرين من اكتوبر 2008م

[23]- دنيا الوطن المحاضرة هيفاء مجادلة تصدر كتابا حول أدب ليلى العثمان، نشر في الخامس من نوفمبر 2011م

[24]- وكالة أخبار المرأة ، سؤال الهوية في أدب المرأة الكويتية المعاصر ، بقلم سعاد العنزي ، نشر في 21 أبريل 2014م

الباب الثاني

القضايا النسائية في الرواية "حكاية صفية"

منذ زمان، عانت المرأة بالمآسي النفسية والجسدية، ولا تزال تعانيها، ولو حتى قد بذلت المجتمعات المتطورة وأفرادها قصارى جهدها في تحريرها من قيود التقاليد المتعفنة، وتمكينها حتى تتكاتف مع الرجال في شتى مجالات الحياة، كما أنها جاهدت وكافحت في سبيل تسليح نفسها بالعلم والفن، لكي لا تتخلف عن الآخرين في مسيرة الحياة التي تطلب من الجميع أن يتفوقوا وإلا فلا حاجة إليهم في هذا السباق، والمرأة منذ ولادتها، تبحث عن المبررات، لكل ما حدث بها بسبب كونهاالمرأة، ولكل ما عانت بها من أشكال التعذيب على يد السلطة أو المجتمع أو الأسرة أو الدين، وكم من أمة قد وصلت إلى ذروة النمو والازدهار ولكن المرأة فيها لم تكن إلا وسائل لتسلية الرغبات الجسدية وكانت سجينة العبودية والاسترقاق، حتى جاء الإسلام برسالة العدل والمؤاخاة وعلم ميين العرب دروس السياسة والاجتماع وشجعهم على تأدية حقوق الله وعباده وإيثار الآخرين على أنفسهم.

إن "حكاية صفية" حكاية التي وعدتها الكاتبة قبل موتها، أن ترويها ذات يوم، ولو أنها قد مضت عليها العقود، تبدو أن الحكايات مثلها أو أكثر منها إيلاما متواجدة في المجتمع العربي والكويتي، لأن المرأة لا تزال ضحايا للظلم والحرمان من الحقوق الأساسية مثل حق التعليم وحق اختيار المهنة ولا تزال تقتل من أجل الحفاظ علي

الشرف وغسل العار، وهذا لا يعني أنها في الحقيقة تقتل، بل يخلق لها جو، الموت فيه أهون من الحياة.

فهذه الحكاية لصفية التي تحكيها الكاتبة ليلى العثمان صورة للتمرد على جميع الخرافات والبدع التي تلعب دورا سلبيا في تدمير الكيان الاجتماعي وتحول دون ترقية المجتمع الإنساني وتنعكس فيها أشكال التعذيب التي تمر بها المرأة وتعانيها لكي تلد من سيظلم عليها ويسجنها ويقتلها للحفاظ على الشرف وغسل العار.

حياة ليلى العثمان كالطفلة والمراهقة أصدق مثال للحرمان العلمي والفكري، فهي التي عاشت حياة الحرمان، وقفت حياتها لكي لا تسجن العقول ولا تكسر جنحة بدعوى الحفاظ على الشرف، وهي من الرواد الذين رفعوا أعلام تحرير المرأة واحتجوا على الأعراف التي قد أنهكت المرأة ، ويرجع تاريخ حركة تحرير المرأة إلى الثورة الصناعية في أوربا خلال الفترة ما بين 1769م و1820م وهي لم تكن إلا بداية الموجة العنيفة المتمردة على سائر الأنظمة والحكومات التي كانت تقيد المرأة وحريتها، فهذه الحركة لتحرير المرأة ثارت على كل من له سلطة عليها، وطالبت لنفسها بالحقوق المتساوية للرجال، ولو أن هذه المطالبة بالحرية والحقوق الأساسي التي كان الرجال يتمتعون بها مند عصور، وكانت المرأة محرومة منها منذ أن فتحت عينيها، لم تكن على خلاف المصالح الإنسانية أو الدينية، تعرضت للمصائب الضخمة من قبل الذين كادوا يفقدون أغلى شيئ في أعينهم وهو سلطتهم عليها

فحاولوا قمع هذه الثورة وبذلوا جهدهم في هذا السبيل ولكنها على مر الأيام، أخذت تقوى وتغلب على النظريات الأخرى في المرأة وحريتها.

لم تتوقف هذه الموجة إلا ووصلت إلى أنحاء العالم، والعالم العربي الذي كان في هجود الكرى، لم يستيقظ إلا بطرقات الاستعمار الغربي على أبوابهم واحتكاكهم بالغرب من خلال السياحة والأدب والتبادل الفكري كما وصلت من الغرب إلى العالم العربي عن طريق كتابات بعض المصريين المتجددين الذين رأوا أن تعليم البنات و تثقيفهن من أهم ضروريات العصر، فدعوا إلى مزق الحجاب، و ذلك بسبب كونه حاجزا في الطريق إلى الترقية و الازدهار.

و لم تسمع شعارات حرية النساء في العالم العربي إلا في منتصف القرن التاسع عشر في مصر، عندما دعا الأستاذ رفاعة رافع الطهطاوي في كتابيه "تخليص بريز في تلخيص باريز" (عام 1834م) و" المنهج الأمين لتعليم البنات والبنين" (1873م) إلى تعليم البنات و توفيرهن الفرص للتكاتف مع الأبناء في بناء الدولة المتقدمة.

ومحاولة الطهطاوي لم تكن إلا بداية سلسلة من الكتاب الذين سعوا إلى تصوير المجتمع العربي الإسلامي حبا له أو عنادا، و منهم فارس شدياق صاحب كتاب "الساق بالساق عام 1855م" وصاحب مجلة نسائية "الفتاة" عام 1892م وقاسم أمين صاحب كتب "تحرير المرأة" عام 1899م و"المرأة الجديدة" عام 1900م و"المصريون" ومرقص الفهمي صاحب كتاب "المرأة في الشرق" عام 1894م.

ولم تتوقف هذه الموجة في مصر بل وصلت إلى أنحاء العالم العربي والإفريقي فنرى العديد من الكتاب الذين أعلوا أصواتهم دفاعا عن حقوق النساء.

ودولة الكويت التى تعتبر أكثر محافظة على القيم الإسلامية، لم تنجح في فرض القيود على النساء فنرى أربعة فتيات من أسر التجار المعروفين قامت بنزع عباءاتهم و البوشية وحرقها عام 1956م احتجاجا على تلك الملابس المقيدة لحركة المر أة و كتعبير عن المطالبة بحرية المرأة.

ولو لم تكن مساهمة الشيخ عبد الله الجابر (1900-1996م) و الشيخ يوسف بن عيسى القناعي (1878-1873م) في هذا الصراع بين التقليد و التجديد لما نجحت حركة تحرير المرأة في الكويت وساعدهما في هذا الصراع العديد من الشعراء والكتاب و منهم الأديبة الروائية الشهيرة ليلى عبد الله عبد اللطيف العثمان.

الفصل الأول

ما هي القضايا النسائية في الرواية؟

القضايا التي سلطت عليها الأضواء الكاتبة ليلى العثمان في الرواية "حكاية صفية" هي ليست بجديدة في مجتمع إنساني، ولو أنها قل أن يحكيها أحد بجرأة، مثلما تتميز بها هذه الكاتبة، فهي القضايا التي سببت في تدمير النظام الأسري والاجتماعي، وخلق جو مناف للنمو الفكري والإبداعي للجميع، لأن الأسرة أساسها الحب بين أفرادها، والظلم بجميع أشكاله لا يخلق إلا جوا تقيد فيه العقول والأذهان، فالمرأة في المجتمع الكويتي أو العربي ضرورة، لا لأنها نصف المجتمع، تلعب دورا هاما في بناء المجتمع متكاتفة مع الرجال، تضحى بأحلامها لكي تتحقق أحلام الآخرين بل لأنها يكتمل بها المجتمع الإنساني.

وهي تحرم لكي ينعم الآخر، وحياتها علامة التضحية التي لا يقدر عليها سوى المرأة كبنت وأخت وزوجة وأم وجدة، فهي تقدم أفضل أيام حياتها هدية لإخوتها، حاملة شرف الأسرة، مختنقة الأصوات، منكسرة الأجنحة، لا تقدر على الطيران وراء جدران البيت، وتقوم بكل ما يحتاج إليه النظام الأسري المحافظ والمجتمع الكويتي من اتباع الأعراف والتقاليد وإرضاء أرباب الدين والشريعة لكي لا تجلب لهم العار،وحياة "ثاجبة بنت رشدان الحواي"أم صفية كزوجة وأم، أصدق مثال للمرأة الكويتية وقضاياها التي تعانيها طيلة حياتها فهي مسؤولة عن تدبير الأمور العائلية

وإنجاب الأولاد وتربيتهم وما عداها من الأمور وراء جدران البيت، فلا حاجة إلى دورها وتدخلها فيها.

والمرأة فيها أضعف مما تولد لأنها لا تجد جوا مناسبا للنمو الفكري فنرى فيها أمثلة عديدة، تشير إلى عدم قدرتها على حياتها وهي دوما مطمئنة بما أعطاه المجتمع من مختلف ألوان الحرية التي لا تختلف عما يتمتع به الأضعف لأن الحرية عبيدة الأقوياء فلا تجرأ على أخذ ما تستحقه، ولذا أرى ضرورة رواية بعض المشاهد وفظاعتها لكي يدرك الجميع مأسآة المرأة وآلامها.

"ارتمت صفية قرب أمي لتحتمي بها لكن أبي انتزعها بعنف وهي تصرخ:

_ يمه الله يخليكي فكيني منه.

لا حول ولا قوة لأمي غير الر جاء:

_ الله يهديك يا بو هلال أترك البنت.

لكنه تمكن منها. حملها وهي تعافر بين يديه، ويقلب انقشعت منه الرحمة ألصق قدميها لى التاوة المستعرة بنارها حتى فاحت رائحة شوائها وصراخ أختي يستعر"[25].

"تلك الليلة خمدت النار في موقدها، لكنها لم تخمد في قدمي أختي ولا في قلبي وقلب أمي"[26].

---

[25]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 9-10

"لم تكن المرة الأولى التي يعاقب بها صفية.. كم مرة رفع قدميها وجحشهما بالعصا حتى تورمتا، كنت في كل مرة أحسب أن صفية ستتوب. لكنها ما إن تبرأ جراحها حتى تلبي نداء الشارع، تشدني من يدي لأخرج معها فأخاف:

_ وإذا شافك أبي؟

_ لن يشوفني، أنت تقف عند رأس الشارق وإذا شفته تعال بسرعة ونبهني لأدخل"[27].

فهي لا تقدر على الدفاع عن أشكال العذاب الجارية على ابنتها الوحيدة، لأنها مصابة بالمرض، الذي أضعف المجتمع الإنساني منذ عصور، وأنهكه، وتركه يبحث عن الدواء لداء مزمن، ولكنه لا يجد إليه سبيلا، وهو الصمت أمام الأيدية الظالمة التي تبذل قصارى جهدها لكي لا يستمع أحد أصوات الفراشات المختنقة.

والسلوى الوحيدة بالنسبة للمرأة، من هذه المعاناة التي تمر بها في كل عصر ومصر، هي الدعاء على كل من له سيطرة عليها ومن يقدر على تدبير أمورها فنرى "ثاجبة" ترفع أيديها مرارا داعية على زوجها لكي تتنفس "صفية"بحرية، وتختار لنفسها حياة، تحبها.

ولكنها فشلت ثاجبة في دعائها، وخابت آمالها في أن تتحرر بنتها من القيود التي كانت هي أسيرة بها منذ ولادتها، فاشتد العذاب عليها مع مر الأيام، وتنوعت

---

[26]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 12-13

[27]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 13

أشكاله حتى حبست بالبيت لأربعين يوما لكي تؤدب، ولكنها كبرت ومعها كبر عنادها، فنراها تسترق النظر من خلال النوافذ المطلة على الشارع إلى "الشبان الذين يأتون من البحر موردة خدودهم من ملحه وشمسه، وأولئك المتربة شعورهم، المتوخلة أقدامهم الحافية وهم يتشاجرون متبادلين الكلمات البذيئة المثيرة. أو حين يتصارعون فترتفع دشاديشهم لتكشف عن سيقانهم الفتية وتظهر أعضاء بعضهم الذين بلا سراويل، فتتدغدغ. كانت متعتها الكبرى حين يقفون تحت الدريشة يتبارون برش بولهم على الحائط، فتتلصص على عوراتهم المتفاوتة الأحجام. وحين يصدف ويلحمها أحدهم يتظاهر بأنه لا يراها ومتعمدا يبدأ يداعب (شيئه) قبل أن يبول قاصدا إثارتها، وهي في مكانها مهتاجة من الرغبة، كان المشهد يسرب إلى جسدها عشرات النمل الذي يصير فلولا ويفقس آلاف البيوض فتهرش بيدها لتخرس الفلول"[28].

أول تجربة بالنسبة لصفية لم تكن تجربة الحب والحنان، بل كانت تجربة الحرمان من التدليل الأبوي بسبب كونها ملعونة إلى الأبد بدون ذنب، ومن الخروج إلى الشوارع كباقي البنات في عمرها، ثم الحرمان من التعلم لأنها لا تحتاج إليها في أية مرحلة من مراحل الحياة.

ولكن تجربة هلال-أخ صفية- في جانب آخر تجربة حلوة، يتمتع بالحرية الشاملة ولا يستطيع أحد أن يحول دون حريته ويمنعه من الخروج إلى الشارع

[28]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 57-58

والتعلم على أيدي المطوعة وذلك لأنه قد فتح عينيه في مجتمع يربى فيه الأولاد لكي يقدرواعلى تطويق البنات وسجنهن وقتلهن.

"كنت في السابعة من عمري حين قرر أبي أن أذهب إلى الملا أبو صالح لأتعلم القرآن، كنت أكره هذا الملا لأنه ذات يوم فتن على أختي، لكن يأمر به أبي لا بد أن يطاع، فهو صلب الطبع والقلب، أمي فرحت وبلطف شديد قالت له:

_ ليش ما تخلي صفية تدرس عند (المطوعة) يمكن الله يهديها وتعقل.

_ رفض أبي بشدة فحاولت:

_ يا عيسى كل البنات يتعلمن القرآن.

نظر إليها مذكرا:

_ بنتك ليست كباقي البنات، باكر تنخاش من المطوعة وتهيت في الشوارع.

لم تحاول أمي بعد ذلك وكأن أبي نبهها لأمر غاب عنها"[29].

والحوار الآتي بين أب صفية وأخيها سوف يجلي الفرق الشاسع في المعاملة مع الولد والبنت فيعتبر المجتمع العربي الأولاد مسؤولين عن المحافظة على البنات وتسوية سلوكهن في صورة الاعوجاج.

"رغم صغر سني، بدأ أبي يحرضني على صفية ونحن في طريقنا إلى الملا:

---

[29]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 53

_ تابع أختك، لا تخليها تطلع الشارع، وإذا سوتها اضربها.

_ يبه ما أقدر هي أكبر مني.

قال أبي:

_ حتى لو هي الأكبر، أنت الولد وهي البنت امسك العصا والعن خيرها.

_ يبه أنا أحبها. ما أقدر أعورها.

ضرب رأسي:

_ (حبتك القرادة). أختك هذي شرفك ولازم تحافظ عليها.

لم أفهم، سألته:

يعني شنو شرف؟

هدأ أبي من لهجته، أحاط كتفي بذراعه:

_ شوف...لو صار لأختك شيئ مو زين، تحط رأسنا في الطين، البنت لازم تكون عفيفة وما يلمسها أحد غير زوجها.

دافعت عنها:

_ بس يبه أنا ما أشوف الصبيان يلمسونها، هي بس تحب تلعب معاهم.

قرص خدي:

_ يا (الخبل)..اليوم تلعب معاهم باكر يلعبون فيها.

تحمست:

_ والله أضربهم.

دفع برأسي إلى الخلف:

_ أضرب أختك ومالك شغل بخلق الله.[30]

هذا والعديد من الأمثلة، تنعكس فيها النظرية في المرأة في مجتمع ذكوري، لا يتحمل اعوجاج المرأة، وانحرافها عن سواء السبيل، ولكنه في نفس الوقت لا يرى حاجة إلى تسوية سلوك الأبناء الذين قد يضلون طريقهم ويجلبون لهم العار مثلما قد تأتي به المرأة فلا يلقي عليها المجتمع نظرا يساوي بالنظر الذي يلقى على الرجل وكيف لا يمكن المعاملة معها برفق إذ هي بنفسها تتعامل مع الجميع برفق وحنان وكيف لا يستحق الرجل في حالة اعوجاجه بالعذابات التي هي مكتوبة في دفتر حياتها.

"وخلق الله ما تركوني بحالي، كانوا يحدقون بي بعيون حمراء، أحدهم ضرب قمة رأسي بكفه وهو غاصب:

_ لا تخلي أختك هايتة، إضربها.

أجبته بذل:

---

[30]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 54-55

_هي أكبر مني.

_ حتى لو..هي البنت وأنت الولد، يعني الرجال"[31].

ومما لا شك فيه أن صفية أو أية امرأة في كل زمان، لا تولد عنيدة، بل هي وليدة الفطرة ثم يربيها المجتمع كما يحب حتى تكون عفيفة أو عنيفة، و"صفية" المحرومة من التدليل الأبوي، تبحث عن طمأنية القلب والنفس على الشارع، مطاردة الحب الذي لا يستقر في البيت بين عيالها والدموع التي جفت في عيونها، بدأت تظهر آثارها في سلوكها وأفعالها.

إن العلم له أهمية كبيرة، يلعب دورا هاما في تغيير مصير الأمم والأقوام. وكم من قوم قد علا أفراده بعلو مكانهم في مجال العلم والفن وأدركوا أهميته فتولوا زمام الحكومة وسادوا العالم كله ولذا بدأ الله عزوجل رسالته في صورة القرآن الكريم بالآيات الكريمة التالية:

"اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم"[32].

ونظرا إلى أهمية العلم، حث النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين على طلب العلم وجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة، وقد عرفت أم صفية أثر العلم في النفوس والتغير الذي قد يحدث في حياة الفرد فتطلب من أبيها أن يطلق سراحها ويأذن لها أن تتعلم لكي تهتدي ولكن كان قلبه قاس فلم تسمح لها بالتعلم والتزين

---

[31]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 55

[32]- القرآن الكريم، سورة العلق، آية 1-3

بمجوهرات العلم وأسدلت الجهالة الستار على عينيه فلم يعد يحب شيئا إلا شرفه ولا يقدر على النظر وراءه كي يرى جمال هذه النعمة في صورة البنت.

وكل هذه الأشكال من الحرمان قد دفعتها إلى أرض لا يمكن العودة منها فنراها يرتوي جسدها الظامئ من المشارب الممنوعة لها، أحيانا على سطح المنزل مع حسين "الحب الوحيد" بالنسبة لها وأحيانا في بيت الوناسة مع اولئك الذين لا تعرف اسمهم ولا نقوش وجوههم والشيئ الوحيد الذي يقلقها هو حاجات جسدها التي لم تتمكن من سدها رغم جهدها المتواصل.

"هل يمكن أن تتوب وجسدها يحتشد بالرغائب؟ كانت اللعنة قد سكنت الجسد بسبب ذلك المنقار المتحفز، وقد استثمرتها ببراءتها في محارشات الصبيان ومداعباتهم. السطح الآن سيفتح بها براحة تجهل مساحتها لكنها بحس جسدها الفائر تدرك أن أمطارا دافئة ستروي أرضها وتنبت أعشابها"[33].

وحكاية حبها مع حسين تشير إلى أنها كانت تعرف الحب وأسراره كما أنها كانت مطمئنة مع حبيبها الوحيد حسين ابن السماك وكانت بدايتها حبا بريئا بدعابات صغيرات لكن الرغبة سرعان ما فتحت مزاليجها وتدفقت سيولها حتى تجاوز الحب براءته ومع تجاوزها حد البراءة، حدث التغير الكبير في سلوكها وتصرفاتها.

"تغيرت صفية...

[33]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 69

جسدها الذي كان يرتوي، منحها السكينة، فصارت أكثر هدوءا، لم يعد نملها يعكر صفوها ويستفزها، لم تعد تلجأ إلى وسائلها القديمة لإخراسه، كان وجود حسين ملاذها الذي يرويها ويشبعها"[34].

ولكن القدر كان يؤامر ضدها وضد سكينتها في حضن حبيبها فلم تعد حكايتها التي نسجت خيوطها بعيدا عن العيون، تبقي على حالها، بل اكتشف شأنها مع حسين على أبيها فظل غاضبا وكاد أن يقتلها حتى أدرك خطورة الأمر وعواقب قتلها فاقترح أبا حسين أن يزوج ابنه مع بنته ولكن الدين ومذاهبه حالت دون أمنيته وخابت آماله ومعها هدمت قلعة العزم التي شيدها ليلا ونهارا.

"في الليل رأت ثاجبة عيسى _ ولأول مرة _ يبكي بحرقة ويلطم رأسه، ولأول مرة بعد وجبة عقاب لصفية تشفق عليه ولا تعاتبه، الرجل مهزوم والعار الذي كان يخاف منه لحق به وكسر نفسه.

مسحت على رأسه وهي تواسيه. قال وهو يفرك كفيه:

_ بنتك ضيعت نفسها وضيعتنا.

هي في واد آخر كأنها لا تسمعه:

_أنا قلت ما يصير عزاب يسكنون بين الأوادم.

ينظر إليها هازئا:

---

[34]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 81

_ أوادم؟ الأوادم لا يهملون بناتهم. لا فاد معها ضرب، ولا صلب، ولا حرق، وكنت تدافعين عنها، هذه نتيجة دلالك الماصخ.

بلهجة مشحونة بالخزي:

_ سود الله وجهك يا صفيووووه"[35].

علاقتها مع حسين ابن السماك الشيعي قد تنقدها من النار الملتهبة في داخلها ولكن التفاوت في حالة اجتماعية لأسرتيهما والفرق في العقائد والمذاهب منعا من وصلتهما فنفيت إلى أرض لا حياة فيها ولا ممات وعذبت تعذيبا يستعيذ منه الشيطان، فضربت، وصلبت، وحرقت حتى لم يعد في جسدها عظم سليم من كثرة الضرب والشذخ.

ورغم علاجها ضربا، وحرقا، وصلبا، زادت شدة مرضها، حتى عجز أبوها منها، فقرر أن يذبحها...أراد أن يطفئ النار المتمردة في جسدها، ويئد لمعة البرق في عينيها، وهي متلوعة، همها يطفح من داخلها، هل تستطيع أن تجوع أربعين يوما؟[36].

ولكن لم تقتلها الأيام التي قضتها مسجونة في غرفة، لم يكن فيها سوى خيط رفيع من النور يأتي من تحت الباب الخشبي المتآكل ولم يأخذ جوع ينهش بأحشائها روحها وعندما خرجت منها، صارت ضئيلة البنية، فعل بها الجوع فعله...بدت كالمسلولة وقد ضمرت وجنتاها وأحاطت بعينيها الفاحمتين هالات

---

[35]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 90-92

[36]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 99

سوداء كانت مثل (القروة لا تشبع ولا تروي). شوقها للطعام جعلها تأكل بشراهة طول النهار وتنام كثيرا كأنها لم تنم منذ أن خرجت من بطن أمها. وفي صحوها تظل ملتصقة بأمي كظلها تخشى إن ابتعدت أن يغدر بها أبي وينفذ بها عقابه الجديد الذي ينويه[37].

حياة صفية أشد من الموت، لأن الميت لا يذوق طعمه إلا مرة واحدة، ولكنها ذاقته كل لحظة، وعاشت حياة مليئة بالعذابات التي يبدو كل واحد منها آخرها، ولكنها نجت منها دون أي تغير في إرادتها وتصرفاتها، بل تتفتح في جسدها آلاف الشهوات، فلا تموت....روحها العاشقة للدنيا لا تموت....جسدها المزهر الثائر رفض أن يموت...كان الوقت يمر طويلا حالكا تشتهي لو ترى قرص الشمس ووجه القمر، تشتهي أن تسمع صوت عصفور أن هديل حمامة، تشتهي أن تسمع صخب الشارع وبذاءات صبيانه. تشتهي لو تطير إلى غرفة حسين وتنام بين يديه[38].

ولم تنته تفانينه في العقاب، لأنه لم يكن لها حد ولا مانع، فجاء بخطة أخرى أكثر قسوة، وهي التي يقصها هلال:

"دفعك دون رحمة وكأنك كلبة جرباء يخشى عدواها ولست حشاشة جوفه من دمه ولحمه.

هويت....

---

[37]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 114

[38]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 104

هويت يا صفية.....

ثقبت الهواء مسامير صرختك المدوية وابتلعها صوت ارتطامك الفظيع.

شعرت أن جدران بيتنا كلها تتهاوي، والعالم كله يسمع عواءها الذليل، كل الجدران بكت وأبوك لم يهت له رمش ندم. . .

(من لا يعرف الرحمة يا صفية لا يعرف الحزن)

لم يهتم أن يقترب منك أو يلقي عليك ولو نظرة حولاء. فقد أنهى مهمته الشنعاء وخرج....[39]

وحسب في هذه المرة أنها ماتت حين زلت قدمها وسقطت من السطح، لكنها لم تمت فالتقم أبوها هزيمته الثانية. . . صمت. لم يتكلم مع أمي وكانت تشعر أن بركانا يغلي بداخله، وأنه لن يستسلم، وسيبحث عن وسيلة أخرى يقتل بها أختي.

لم تمت صفية من الجوع. . ولا من سقوطها من أعلى السطح. ولم تجد وسيلة لإفطار الجسد الصائم غير حرث المواقع الثائرة التي تتجرع زعاف نشوتها وكادت تنفد طاقتها على الصبر حتى جاء وقت مغادرته إلى مكة ليحج وكانت تنتظر لمثل هذه الفرصة لكي تطفئ نار شهوة الجسد الجسيمة وشهوة الحرية التي تحتاج

[39]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 126

إليها لري أشجارها واقتطاف ثمارها. كانت الرغبة بداخلها كحبة الفول الريانة صابرة بانتظار تفتقها[40].

رغم الوصايا التي يحشو بها أذن أمها، والتهديدات التي استلمت من أبيها، لم تتب وخرجت للبحث عن وسيلة إطفاء بركان الشهوات الجسدية الغالية في داخلها وفي هذه المرة، قد انتهكت جميع قوانين المجتمع وتجاوزت سائر حدود القيم الخلقية التي لم يكن بد من اتباعها لنساء البيوتات الكريمة.

وبدأت تزور مع "خديجة" صديقتها الوحيدة بيت الوناسة الذي هو طريق سري يطعم جسدها ويسقيه ولن تبالي بأبيها وبدأت تتذوق كل أنواع المتع، وتلبي رغبات جسدها ورغبات الرجال ولكنها مع كل هذه الوسائل المتاحة لسد حاجاتها الجسدية، أدركت أنها فريسة لـ"هناء" ربة بيت الوناسة وفريسة زبائنها، مجبرة سترضح...فهي بحاجة لهذا البيت الذي يغمر جسدها بمياه الحياة حتى صار جسدها مباحا للحرث والسقيا.

كما أنها لم تستطع أن تنسى حبها الوحيد وهو حسين ابن السماك الذي رغم كل المتع، لم تكن تصل إلى اكتمال نشوتها، إلا إذا استحضرت وجهه وجسده، وتخيلت أنه هو من يراقدها، ظلت تحبه وتتمنى لو يعرف بيت الوناسة ويأتي لتشبع منه.

---

[40]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 133

قد تغيرت صفية بعد أن ارتوى جسدها الظامئ، فبدأت تساعد أمها في الأعمال اليومية، وتعامل مع هلال معاملة الشفقة والمحبة أكثر من قبل، وعلى الرغم من أن هلال قد أجبرها على أن تنقطع سلسلة غيابها عن غرفتها في الليل، وزيارتها إلى جنتها الأرضية لأربعة أيام، لم تنقطع هذه السلسلة تماما بل عاد الأمر إلى حاله وبدأت تذهب إلى بيت الوناسة لكي ترتوي، بعد أن صدق هلال أنها لا تكذب بأمر غيابها وأنها تلتزم بوعدها أن لا تصعد إلى السطح.

حتى وصلت الليلة التي كتبت في دفتر حظها سطورا نحسة، وذهبت بسعادة حياتها، وهي الليلة التي وقعت فيها في فك الملا أبو صالح وهي الليلة التي بخلاف عادتها، ارتمت تحت قدميه وناحت:

_ استر على يا ملا. . أنا صفية بنت عيسى

يا لها من فجيعة كبرى أرجفته وأوقدت غضبه. ركلها ركلة عنيفة:

_ حسبي الله ونعم الوكيل، أين كنت؟ قولي بسرعة.

لقد انكشف أمرها، فلم تخش أن تعترف:

_ ك. . .كن. . . كنت في بيت الوناسة.

هبط وجه الملا من الذهول، لم يصدق ما سمع، واشتعلت نيرانه حين شم رائحتها فتلثم بغترته:

_ وبعد شاربة المكروه الحرام؟ وصلت بك المواصيل أن تصيري (ق. . .)؟

كررت رجاءها:

_ الله يخليك يا أبو صالح استر علي.

_ الله لا يستر عليك أنت وأمثالك.

_ علشان خاطر أبوي.

_ كان الله في عونن أبيك حين يدري. سيموت الرجل من قهره.

_ لا تقل له. . وأوعدك أنني سأتوب.

نظر إليها بازدراء وأمرها:

_ قومي ادخلي...عساك في نار جهنم"[41].

ولو أن أعضاء جسدها قد ارتمت تحت قدمي الملا، لم ترأف رغبات جسدها بها...عادت أعنف مما كانت، كل شيئ يمكن أن يخزنه الجسد ليقتات عليه في أحلك الظروف إلا اللذة التي تنتهي لحظة الاكتمال، هي الآن بطغوة حاجتها لمن يغرقها بشلال العسل ويدق أعناق الدود الذي يهرش بها كهرش الأظافر المسنونة.

اشتاقت لبيت الوناسة، وحاولت في التسلل إليه بدون المعرفة بأن الملا قد سد دريشة الحرية لها ولرغباتها. . .سكبت الدموع وهي تشتمه بأسوأ الشتائم. . والآن أدركت أن مواسم حريتها ووناستها قد انتهت.

---

[41]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 166-167

ومنذ أن وقعت في فخ الملا، كانت خائفة والجمرات في داخلها كانت تتقد وتوشك أن تنفجر براكين وذلك لأنها في الماضي قد أغضبته بطول لسانها وزفارته وهي تعرف بأن ذنبها هذه المرة كبير، ولن يكون أي عقاب بحجمه سوى الذبح ليغسل دمها العار عن أبيها.

قد مضت أسابيع على عودة أبيها من حج بيت الله ولم تتعرض لأي جرح أو عذاب، مسدية بداخلها الشكر للملا الذي ستر عليه وكانت مطمئنة، ومرتاحة البال على الرغم من أنها كانت تشتاق للرجال الذين يقتاتون من فتنتها وتقتات من عصائرها، ولكن الملا كان في انتظار فرصة لكي يخبر أبيها خشية من الله الذي سيحاسبه لو تكتم عنها.

وذات ليلة، عندما كان عيسى بين الرجال في الديوانية، سعيدا، مرتاح البال، نظر إليه الملا وفكر في أن لا يخبره ويعصف براحته ولكن الخوف من عقاب الله قد غلب على صعوبة مواجهة الرجل بزنى ابنته.

فأخبر أباها ما رآه تلك الليلة النحسة والأمر بالنسبة له لم يكن سهلا، أما أبوها فتمنى أن تنشق الأرض وتبلعه ولكن كم من أمنية لا تتحقق. عاد إلى البيت منغمرا بذهوله، منقوعا بعرقه، يرتعش ارتعاشات متلاحقة المتشحة بظلمتها: (ليتني مت قبل هذا اليوم).

ورغم احتشاد الغضب في داخله كالتيار الجارف يطوح به من فكرة إلى أخرى، ورغم كل الذي يعانيه، أذعن لعقله:

"لا أريد أن أكون قاتلا وأدخل إلى السجن بسببها، لا أحد يعرف بالحكاية غير الملا وقد ستر عليها ولم يخبر أحدا، لا بد أن أتجنب الفضيحة"[42].

فلم يكن له بدا من أن يبحث عن وسيلة تجنبه إثم القتل ولم يجد بابا ولا نافذة ولا حتى خرم إبرة لينفذ منه إلى حل يستأصلها به من البيت دون جريمة ولا فضيحة....اضطر أن يبحث عمن يساعده فلم يجد غير باب الملا يطرقه وهو خذلان وخجلان فقد يجد عنده المفتاح ليفك صواميل أزمته:

_ لا أريد أن تعيش. .ولا أريد أن أكون قاتلا.

برقت الفكرة في ذهن الملا:

_ ما رأيك أن تفعل كما فعل (فلان) هل تذكر؟

عصر رأسه:

_ والله يا ملا لم يعد فيني عقل لأتذكر.

_ أنا أذكرك. . فلان سلم ابنته للحكومة، سجنها وارتاح منها.

بفرح كمن اصطاد الشمس والقمر:

---

[42]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 175

_ الله ينور عليك. . هذا أفضل حل.

نهض ليقوم فاستهمله الملا:

_ يجب ألا يعرف أحد.

فطن لحيرة أخرى:

_ كيف يا ملا؟ الديرة صغيرة والناس فاتحة أذونها وعيونها.

_لا تقلق. . . أنتم لكم أقارب من بعيد في البحرين خلى أمها تقول إن واحد بحريني خطبها وإنك ستسافر بها إلى هناك.

قام يقبل رأس الملا ويكثر له من الشكر. لقد أنقذه من ورطته الكبيرة.

كان تسليمها إلى الحكومة في أعينه حل وحيد لهذه الأزمة فسلمها إليه دون أن ينظر إلى جروح أمها الدامية التي سوف تنهكها وتجعلها حبيسة غرفتها أو إلى أخيها الذي ستسكن الأحزان قلبه الصغير الممتلئ بحبها حتى آخر يوم في عمره.

عاشت أمها ما عاشت من الأعوام حتى استلقت على فراش الموت وتمنت أن تراها قبل أن تموت ولكن كان قلبه صخرة أو أشد قسوة فلم يسمح لها بذالك وكأنه يشمت برغبتها:

_ اعتبريها ماتت وريحي روحك[43].

[43]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 188

ولكنها لم تنس ابنتها في آخر لحظاتها فنطقت بوصيتها الأخيرة لابنها:

"_ لا تترك أختك في السجن، إذا مات أبوك أخرجها منه

لم أستطع إلا أن أعدها، وكنت صادق بوعدي"[44]

كما لم تنس ظلم أبيها عليها ولم تغفر له وهو كان يجلس على ركبتيه ويطلب منها أن تنطق بالشهادة، لكنها بعينيها المحتقنتين بغضب شاسع قذفت دعوتها في وجهه:

_ الله ينتقم منك يالظالم.

تشهدت و. . . أغفت.

أما أخ صفية هلال، فلم يكن لأبيه في قلبه إلا حقد وكراهية، لأنه هو السبب الوحيد في سائر العذابات التي مرت بها صفية فلم يغفر له ما فعله بأمه وبأخته.

"وهو في آخر أنفاسه لم يشأ أن تموت قبل أن يفح لي بوصيته:

إياك أن تخرج أختك من السجن. . دعها تموت هناك.

في داخلي همست حاقدا:

_ مت أنت وسترى كيف لن أنفذ وصيتك أيها الجبار."[45]

---

[44]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 188

وحقا كان أخوها صادقا بوعده فبعد موت أبيه، أخرجها من السجن وكان عمر انتظارها لهذه اللحظة ثلاثين عاما ولكن عندما خرجت منه، وجدت كل شيئ قد تغير سوى حبها إلى البحر وعدم ندامتها على ما فعلت.

_ صفية . . . هل ظلمك أبي؟

أجابت بصوت خجول:

_ ظلمني جسدي.

جرؤت وسألتها:

_ هل تندمين الآن يا صفية؟

غضب صوتها:

_ ليش أندم؟ لن أستحي منك، لقد أمتعت جسدي واستمتعت. ولست بنادمة.

صمتت.

وفي نهاية حكايتها، تشير ليلى العثمان إلى أن للسجن حكاية أخرى سوف تحكيها ذات يوم وتطلب منا أن ننتظرها بكل رغبة واشتياق وهذا يعني أن هذه الحكاية لم تكن إلا نصفها أو أقل منه كما هي إشارة إلى أن أيامها في السجن لم تكن إلا عذابات أخرى قاسية أو أكثر قسوة.

---

[45]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 190

الفصل الثاني

آراء المعاصرين في تأييدها

لا يمكن تقدير قيمة الأدب إلا عن طريق آراء المعاصرين الذين عاشوا حياة الأديب، وتنفسوا في نفس الجو الذي نتج عن عمل أدبي فهم قادرون على الفرق بين الصدق والكذب، و التمييز بين الجودة والرداءة.

ونظرا إلى أهمية آراء المعاصرين، أرى ضرورة نقل آراء بعض المعاصرين الذين ذاع صيتهم في أرجاء العالم، والذين قضوا حياتهم في خدمة اللغة والمجتمع بكل إخلاص ولا يترددون في تقديم آراء قد تجرح مشاعر البعض بل يأتون بها بكل صدق وأمانة خشية من مؤاخذة يوم القيامة ولن يكون للأديب بدا من الأخذ عليه لأنه سوف يصقل أعماله الأدبية ويجعلها خالية من العيوب اللفظية والمعنوية.

والحكاية التي ترويها ليلى العثمان، وقعت أحداثها خلال الفترة التي تتراوح بين 40 و50 عاما، بداية من العصر ما قبل النفط حتى تخرج صفية من السجن وترى كل شيئ قد تغير وتتحور بكل ما أتى به النفط حتى تسأل:

"هذه الكويت؟

ضحكت:

_ نعم الكويت.

غير مصدقة:

_ لا.... لا....ما أصدق. كل شيء. كل شيئ تغير، وين بيتنا القديم؟

_تغير هو الآخر ثمنوه وحصلنا على مبلغ كبير اشترينا به بيتا جديدا.

_ في شرق؟

_ لا. . . في منطقة واو، وألحين يسمونها الدسمة.

_ يعني صرنا خارج السور؟

_ السور هدموه.

شهقت وهي تلطم صدرها:

_ ليش؟ لقد تعبوا لما بنوه.

_ ضاقت الديرة وكثر الناس وجاء كثيرون من الخارج.

_ وليش جابوهم؟

_احتاجت الديرة إلى أيد وعقول.

_ عساها بس ليست لعقل أبيك اليابس؟

مددت كفي. حرست كفها المرتاحة على المقعد.

_ العقول تغيرت. . والناس تعلمت.

_ آآه. . عمر.

_ طويل.

_ أضاعه مني أبوك وقلعني من الدنيا.

حركت شغاف قلبي فأكدت لها:

_ الدنيا أمامك الآن واسعة.

فاجأتني حانقة.

_ ليش طلعتني من السجن؟ هذه دنيا لا أعرفها[46].

والكويت ما قبل النفط لم يكن أهاليها يهتمون بتعليم الأبناء سوى تمكينهم من قرأة آيات القرآن الكريم وحفظها في صدورهم، لأنهم لم يروا ضرورته في العصر الذي كان البحر مصدر أرزاقهم الوحيد والتمسك بالدين وقيمه الخلقية كان أحب إليهم من الحياة، فنراهم يقضون حياتهم قرب البحر وخالقه مستعينين به في السراء والضراء، ولكن تجاهلهم بأوامره وأحكامه وحقوق عباده قد مهد الطريق للخرافات والبدع التي لا مجال لها في الدين، وقاموا بتبرير الجرائم الشنيعة التي ارتكبوها على اسمه.

[46]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 213-214

كانت المرأة مختنقة الأصوات قبل اكتشاف النفط ولا تزال غير قادرة على التعبير عن مشاعرها وأحلامها والأدباء مثل ليلى العثمان يجعلونها قادرة على رواية حكايتها الأليمة ويعطونها صوتا لكي تحتج وتثور وتنتزع كل ما هو ضالتها.

تقول فوزية شويش السالم تعليقا على الرواية "حكاية صفية" إن فيها تكشف ليلى العثمان عن واقع بيوت الدعارة بالكويت أيام ثلاثينيات القرن الماضي التي ربما يجهلها الأغلبية، من خلال حكايتها لصفية التي ولدت بتشويه خلقي جنسي ما جعلها فتاة شبقة تهرول خلف ملذات جسدها ولا ترتدع مهما كانت العقوبات، فحياة ليلى الاجتماعية المفتوحة على علاقات كثيرة متعددة ما بين أسرة كبيرة ومعارف وصداقات موزعة ما بين الداخل والخارج مكنتها ووفرت لها معلومات ورصدا لحيوات أناس متعددة مشاربهم وحكاياتهم، مما أثرى كتاباتها بالاختلاف والتنوع[47].

"حكاية صفية رواية جريئة صورت الجانب المحبب والمفضل لكتابات ليلى العثمان ألا وهو الحياة الاجتماعية في الكويت القديمة، كويت ما قبل ظهور البترول، ذلك المجتمع المغلق على عاداته وتقاليده الذي يرعبه جرح شرف البنت، وصفية الفتاة الجميلة المولودة بطاقة جنسية غير عادية جعلتها تبحث عن كل الطرق لتشبع طاقتها غير العادية هذي، ما أوردها في فضائح ومصائب جعلت والدها يمارس عليها كل الضغوط الممكنة، من حبسها في غرفة لمدة 40 يوما، وأيضا

[47]- الجريدة، فوزية شويش السالم، العدد 3103، صدر في الحادي عشر من نوفمبر 2013م

قام بإلقائها من سطح المنزل ولم ترتدع، حتى أودعها سجن الحكومة الذي بقيت فيه 30 سنة حتى مات والدها وقام بإخراجها من السجن أخوها هلال"[48].

"صفية التي تعرضت لظلم كبير من والدها ومن قوانين وأعراف مجتمع قاسية تعتبر شرف البنت هو معيار شرف مجتمعي، لذا قام والد صفية بإيداعها السجن مدى الحياة بدون ذنب أتته سوى أنها ذهبت لبيوت الدعارة لأجل المتعة وليس للحصول على المال"[49].

ويقول الدكتورعلى العنزي في قر اءته النقدية للرواية إنها رواية جريئة، تتميز بالجرأة، فوالد صفية نسخة كويتية من نسخة محمد عبد الجواد «سي السيد» في ثلاثية نجيب محفوظ، والأم من شرق وهو اختيار رآه العنزي موفقا من العثمان لأنه يشير إلى الطبقة الكادحة المتمسكة بالشرف، وهو الشرف الذي تتعامل معه العثمان في روايتها من منظور اجتماعي لا ديني على حد قوله[50].

يشير العنزي إلى أن العثمان تطرح في روايتها سؤالا جريئا: هل شرف الرجل بين سيقان أهله؟ فالأب يحض ابنه على لجم صفية وغسل شرفه في ظل مجتمع واقع تحت سياج اجتماعي وديني، ورأى العنزي ان العثمان تقف مع الطرف الأضعف وهي صفية[51].

---

[48]- المرجع السابق

[49]- المرجع السابق

[50]- الجريدة، العنزي: الجسد في "حكاية صفية" صورة للتمرد، العدد 3104، صدر في الواحد من أكتوبر 2013م

[51]- المرجع السابق

ويتطرق العنزي إلى التشابه والاختلاف بين بطلة العثمان "صفية" وبين "لوليتا" لفلاديمير نابوكوف، فرغم الاختلاف بين صفية ذات الوجه الواحد في الأفعال والأقوال وبين لوليتا التي تظهر عكس ما تبطن، إلا أن الاثنتين تتشابهان في أنهما عاجزتان عن تخليص نفسيهما من السلطة الذكورية[52].

ويشير العنزي إلى ان ليلى العثمان تنظر إلى الجسد من دلالات عدة فهي تتعامل معه كصورة للتمرد على الأعراف الاجتماعية، كما تنظر للجسد المحرم الذي يتم قمعه على أنه حجاب فكري وأن تحرير الجسد يعني لديها تحرير الفكر[53].

ويرى الأديب والناقد على نسر أن هذه الرواية صفعة على وجه بعض الأعراف التي أ ُسقطت على المجتمع إسقاطا ً فزادت من تخلفه وكر ّست سلطات مختلفة الأنواع وكانت المرأة الخاسر الأكبر في ظل سلطة ذكورية تتمث ّل في الأب الذي يتفن ّن في جعل ابنته مسخا ممحو الجمال، لأنه لا يعرف قيمة الجسد في واقع ليس فيه للجسد قيمة إلا من خلال الفحولة الذكورية، فيمارس شتى أنواع القمع والتعذيب محاولا توريث ابنه هذه الخصال ليصبح هذمرالأمكر ّس ً ا كعرف يستحيل التخلص منه"[54].

---

[52]- المرجع السابق

[53]- المرجع السابق

[54]- جريدة النهار، كتاب حكاية صفية لليلى العثمان: الواقع العربي أمام مراياه، على نسر، نشر في التاسع مت ابريل 2014م

ويقول إن فيها، تصر ّ الكاتبة الكويتية ليلى العثمان على تشريح جسد الواقع العربي وتعريته، فتضع المجتمع أمام مراياه بعدما أشاح وجهه عن كنه الحقيقة عقودا واجيالاتخذ من الرغبة بأجلى صورها قضية محورية تشكّ ل العصب الرئيسي للنص، منطلقة منها لإعلان مواقف ورؤى في أمور وثوابت صدئة كثيرة آن الأوان لتنقيتها وتصفيتها[55]

ويشيد بجرأتها ودفاعها عن صفية، بطلة الرواية الأساسية، التي هي أسيرة برغبات جسدها، ومتمردة بطفولة عفوية على الأعراف والتقاليد التي قد كسرت أجنحتها فلا تقدر على الطيران في فضاء الأحلام.

"يمكننا النظر إلى عالم الرواية بمنظارين، الأول خاص هو الالتفات الى أنثى تسعى الى تحقيق ذاتها عبر فرض جسدها، كاسرة بعض التابوات والمحظورات، فتساعدها شخصيات وتناوئها شخصيات وأفكار أخرى. المنظار الثاني عام، يدفعنا لى التأويل لنرى صفية شعبا كاملا أ ُ ريد له أن يظل راضخا وراضيا بما هو مفروض عليه، رازحا ٍ تحت نير سلطات تتعمّ د فكيعيتثبّ ت تسيّ دها، ولا يُ طمع بزعزعة مقاماته التي شيّ دها منذ زمان. في الحالين، تحاول الكاتبة أن تقدم صورة عن مجتمعات شبه أمية في تعاطيها مع تحقيق رغباتها، فتفتح باب الجسد على مصراعيهقوتّ مه على أنه الحقيقة الوحيدة، إذ لا تجعله طرفا في ثنائية، طرفها الآخر الروح كما تعودنا دائما. هذا الجسد المقموع والمجبر على كبح جماحه عند

---

[55]- المرجع السابق

المرأة فقط، يحتاج إلى توعية وحض على النهوض ليثبت أنه يستحق الاهتمام به كما يستحق جسد الرجل، حيث العلاقات غير متساوية، فيها اكتفاء للرجل من دون اكتراث بمتطلبات المرأة التي ينبغي أن تشاركه في ذلك: "منذ المرة الأولى التي دخلت ۔ فيها بيت الوناسة واكتشفت رقة الرجال وكيفية تعاطيهم مع جسدها ومداعباتهم المتنوعة وهي متحيرة. هل يعرف أبوها أن يسامر أمها؟ هل يبوسها ويتحسسها قبل أن يرقد معها؟ هل يعرف أن للجسد رغبات عجيبة؟ تصل إلى نتيجة أكيدة وهي أن والدها لو كان يعرف لعذر جسدها وحاجاته الطبيعية"[56].

إذا عدنا الى المنظار الثاني والتأويل، فإننا أمام قضية شعب تنتظره السجون وأنواع التعذيب المختلفة التي تدل على سادية المتفننين بها، في حال راودته فكرة السؤال عن أدنى واجباته وحقوقه، فيتشو ۔ ه وجوده الانساني،زوج ۔ به في غياهب المجهول ليخرج، إن خرج، ممحو الملامح الآدمية، دافنا ۔ خلفه جماله وكيانه، كما حصل لصفية التي مسخها أبوها. هل هذا قدر مكتوب أم من صنيع البشر؟ سؤال يتردد غير مرة في تلافيف الرواية، ليفتح الباب أمام إشكالية وجودية جديدة: "أين الرجال و لأين حسين؟ و أين الله ليرأف بحالها؟ أليس هو في السماء ويراها؟ فلماذا لا يأتي بمعجزة تخل ۔ صها؟ أم تراه هو الذي كتب في لوحها هذه الخاتمة الأليمة؟"[57].

على رغم ضبابية المشهد والجو المأسوي، تعلن الكاتبة رؤية تفاؤلية، إذ وبطريقة رمزية، ينتصر المظلوم الذي عانى كثيرا في أقبية القمع، وتنجلي غيوم

---

[56]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 157

[57]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 122

التخلف بولادة جيل يعرف قيمة أمثال صفية، كأخيها هلال، الذي ما إن تسمح له الظروف حتى يقتحم السجن ويخلـ ـص أخته ساخطا على أبيه وما يحمله من رمزية، كاشفا انقشاع سواد الحياة بعد طول نضال: "لماذا تبكي السماء؟ هل تغسل وجه رض من مظالم أبيه وأمثاله؟ أم لتبشره بغد أجمل يطل فيه وجه صفية على الحياة؟"[58].[59]

ومن جهتها، تقول السيدة فاطمة الشيدي الشاعرة والكاتبة العمانية إن جرائم الشرف بجميع أشكالها من القتل والسجن والضرب كانت في المجتمع الشرقي متواجدة ولا تزال تقلق المرأة الشرقية لأنها تحمل في مجتمع ذكوري عبء شرف الأسرة إلى آخر عمرها وحيدة ولا يشارك فيه أحد من الرجال.

[58]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 192

[59]- جريدة النهار، كتاب حكاية صفية لليلى العثمان: الواقع العربي أمام مراياه، على نسر، نشر في التاسع مت ابريل 2014م

الفصل الثالث

آراء المعاصرين ضدها

رغم كل ما عانته صفية من عذابات على يد أبيها وما واجهته من صعوبات من قبل المجتمع الكويتي المحافظ، لا يمكن نفي الأمر أنها منذ أيام طفولتها كانت مختلفة تماما عن باقي البنات في عمرها وهذا ما توضحه أمها لأخيها ذات مرة:

_ أختك غير كل البنات (بازع) ولا تلعب إلا مع الصبيان[60].

ومرة أفصحت الأم لأبيها:

_ البنت فيها شيئ غريب دائما تحك[61].

كم مرة لحق بها الأذى وعذبت تعذيبا شديدا بسبب خروجها إلى الشارع وفي كل مرة، يبدو أنها ستتوب ولكنها ما إن تبرأ جراحها حتى تلبى نداء الشارع وكم مرة سمع فيها أبوها التنبيه عن وقاحة ابنته حتى غضب عليها وفتح لها أبواب العذابات المتنوعة:

_ يا عيسى. . .ألا تخاف على ابنتك؟ ترى صبيان الشارع يحارشون فيها[62].

---

[60]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 14

[61]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 18

كانت أمها في انتظار وقت ستتوب فيه صفية ولكنها كلما كبرت سنة صارت أكثر تمردا ولم تجد لها سبيلا أما أبوها فرأى تمردها تحديا لسلطته وقدرته على شكمها، فضاعف من قسوته وطرائق تعذيبه.

فنراها تحب أن تلعب مع الصبيان وأن تسمع منهم كلمات فاحشة تنفخ ريحا في جسدها كما نراها تحب مسابقة الركض على الرمل معهم يوم تذهب فيه إلى البحر وتحب الشارع والبحر وجميع الأشياء التي قد تعطيها لحظة الفرجان رغم العقابات التي تنالها.

وعلاقتها مع صباب الماء وسعود ذي العينين الباهرتين وروضان الذي كانت صفية تؤثره على كل الصبيان تشير إلى أنها كانت تبحث عن وسيلة لإخماد النيران المشتعلة بداخلها حتى تجد حسين ابن السماك قادرا على منحها تلك اللحظات من سعادة ونشوة.

وتشير سعاد العنزي إلى نفس الحقيقة عندما تقول إن شخصية صفية غير شخصية فتاة، أو امرأة نمطية وتقليدية محافظة، ولم تكن شخصية إنسانية لها هم اجتماعي وإنساني معين، كالدفاع عن حقوق الآخرين في مجتمع ظالم، فنقول عنها إنها شخصية ثورية، ولم تكن كذلك شخصية المرأة العاشقة المحبة، فنقول هي عانت من الحب، ولكن شخصيتها غريبة وطارئة على أي نسق فردي طبيعي، ولا

---

[62]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 23

نقول محافظ، كونها تنطلق من رغبات بوهيمية بحتة، لا تكتفي باللعب مع طفل واحد، بل مع مجموعة من الأطفال، ولا تسلك سلوك الفتاة الطبيعية في أي مجتمع، ولكنها تنفر من اللعب مع قريناتها الفتيات، لتذهب إلى الصبية، ولا تتورع في أن تزعج وتظلم أحد المارة، والسقايين بتهمة التحرش فيها، هذا فيما يخص طفولتها، أما مراهقتها، فكانت تشهد انحرافا اخلاقيا مغايرا، وهو الشبق الجنسي المتزايد، والتصرف مع الذات والآخر ببوهيمية مقززة ومقرفة[63].

إن شخصية صفية عنيدة، تثور على جميع الأعراف والمعتقدات التي تطلب منها الخضوع لرغبات الرجال وطموحاتهم بدون النظر إلى رغبات جسدها وروحها ولكن ليس لرغباته حد فلا نجدها تبحث عن وسيلة سوى وسيلة إطفاء نيران جسدها أما روحها فلا ترى ضرورة سد حاجاتها كما تقول السيدة سعاد العنزي:

"فصفية لم يكن يعنيها كلام الآخر عنها، ولم تعط نفسها فرصة للجلوس مع ذاتها، أو حتى التفكر حول واقعها الاجتماعي، ولم تسائل نفسها عن لا أخلاقية سلوكها،ولم تراع حزن والدتها وأخيها عليها بعد كل عقاب قاتل، ولا حتى حاولت تفهم وجهة نظر أبيها القاسية والصارمة تجاهها، للحفاظ على اسمها وسمعتها في مجتمع يدعو إلى الفضيلة والشرف.. فعدم وعي صفية، يقابله عدم وعي الآخر بمشكلة صفية، الأب والأم، بخلل وإشكالية صفية الفيسيولوجية التي تحركها بهذه

[63]- الرأي، إشراقات النقد: حكاية صفية لليلى العثمان. . .الخطيئة بين فكي الموت والحياة، سعاد العنزي، صدر في الثلاثين من أغسطس 2013م

الطريقة اللامسؤولة، من خلال النصح والإرشاد المستمر، والتعامل معها بالرفق واللين بدلا من محاولات القتل المستمرة لها والحبس في البيت، من ثم السجن لمدة ثلاثين عاما، تلك الحقبة المحذوفة من السرد على الرغم من كونه شهد انحرافات أبشع قامت بها صفية، إذ عبرت واختزلت صفية تصرفاتها منذ البداية حتى خروجها من السجن في الحوار التالي مع أخيها في نهاية الرواية، بقولها:

"حين لم أجب حسبتني غضبت منها، قالت لتبرر:

_ شوف يا هلال. . أنا ما كنت أقدر أن أتوب أو أصبر.

لم أخجل أن أذكرها:

_ وكيف صبرت ثلاثين سنة وأنت في السجن؟

استلت تنهيدة حارة:

_ آآآه يا أخي. . . للسجن حكاية أخرى فظيعة قد أحكيها لك ذات يوم"[64] [65].

إن ما يقوله الأديب اسماعيل فهد ناقدا الرواية، سوف يوضح لنا أن شخصية صفية وحكايتها حالة شاذة لا تتمثل بالمرأة الكويتية أو العربية تماما:

---

[64]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 222-223

[65]- الرأي، إشراقات النقد: حكاية صفية لليلى العثمان. . .الخطيئة بين فكي الموت والحياة، سعاد العنزي، صدر في الثلاثين من أغسطس 2013م

"إن رواية "حكاية صفية" هي حالة خاصة للغاية وليست صفية نموذجا للفتاة أو المرأة الكويتية، وأن ليلي العثمان كتبت الرواية بلغة نقية وجميلة والرواية تعتبر ذات منحى تسجيلي، وهي حالة فريدة في الأدب الكويتي أن تتم كتابة رواية لحالة متفردة وفي نفس الوقت يقدم العمل بانوراما للمجتمع الكويتي في هذه الفترة"[66].

وتجد السيدة فاطمة يعقوب حكاية صفية حكاية فتاة مصابة بالإدمان الجنسي ومدى تعارض هذا الإدمان مع بيئتها الكويتية المحافظة[67].

[66]- الجريدة، العنزي: الجسد في "حكاية صفية" صورة للتمرد، العدد 3104، صدر في الواحد من أكتوبر 2013م

[67]- الوطن، ليلى العثمان تروي حكاية صفية بجرأة بعيدة عن الابتذال، فاطمة يعقوب، العدد المنشور في الثامن من سبتمبر 2013م

الباب الثالث

حكاية صفية: دراسة تحليلية

الفصل الأول

المنهج الفني في الرواية

لقد حاولت من خلال هذه الدراسة التحليلية للرواية " حكاية صفية" إبراز بعض النواحي الفنية واللمسات البلاغية الكامنة التي وجدت في عروقها النابضة بالجمال والحسن والإبداع ونهجت فيها المنهج الفني الذي هو أحرى بالقبول لدى دراسي الأدب، وناقديه، والذي يعتمد على تتبع القواعد والظواهر الأسلوبية والفنية بدلا من المضمون الأخلاقي والاجتماعي في الأدب وهذا هو المنهج الذي قد اتخذه الأدباء والنقاد منذ زمن قديم، وسيلة للتوصل إلى مدى تأثير العمل الأدبي في النفوس.

لغة الرواية وأسلوبها

إن الروائية ليلى عبد الله العثمان عربية أصيلة، نهلت من منهل العروبة الصافي، ورتعت في مراتع العرب الزاهية باللغة الفصحى منذ صغرها، ولو أنها لم تتكمن من تكديس الشهادات المدرسية والجامعية، بسبب حرمانها من الذهاب إلى المدرسة أو الجامعة، ولو أنها لم تكن قادرة على مواصلة مسيرتها في مجال العلم والفن، نشات نشأة عربية خالصة، فاللغة العربية كانت جارية في شرايين دمها على طبيعتها وسلاستها الموروثة، كما أنها ورثت فصاحة اللغة والبيان من أبيها الأديب والشاعر، الذي لم ير ضرورة تعليم البنات فلم يسمح لها بمواصلة رغباتها. ولكنها على الرغم من العقبات في سبيلها إلى المجد والعلا، لم تتوقف إلا وهذبت طبعها

العربي وصقلت مواهبها الأدبية عن طريق الدراسة والمخالطة بالعرب الأقحاح وعايشت الجو العربي وبالتالي تدفق لسانها باللغة العربية الفصحى وجرى قلمها بلسان عربي مبين فهي من الأدباء الذين خدموا هذه اللغة الكريمة بكل إخلاص، ولم يروا عيبا في استخدام اللغة الفصحى للتعبير عن مشاعرهم وأحلامهم فنجدها تستخدم الكلمات الفصحى المأنوسة بين الناس وتفضل اللغة السهلة على اللغة الصعبة التي لا تجذب انتباه للكثير بل تورعهم، حتى لا يقدروا على مواصلة القراءة.

وهذا الحب للغة الفصحى قد جعلها عشيقة لكتابات أدباء مصر مثل نجيب محفوظ وخليل مطران بدلا من كتابة توفيق الحكيم لأنه يستخدم اللغة العامية ويكثر في استخدامها وأول شيئ تتميز به كتابتها هو اهتمامها بفصاحة لغتها التي تجذب القراء إلى جانبها وتشوقه أن تقرأها إلى النهاية بدون الملل.

أما أسلوبها فهو أسلوب مزين بمتانة التراكيب، وفريد من نوعه، يشد القراء بسحر عباراته وتسلسل أحداثه ومضامين كتابته وطريقة عرضه المنفردة، وبالإضافة إلى ذلك تختار أسلوبا مشوقا، يدعو القارئ إلى قراءتها، والتمتع بإبداعها القيم.

ولذا نجد الروائية التي تمتلك كتابتها هذه الميزات والخصائص، تعرض الرواية "حكاية صفية" بكل ببساطة وسهولة حتى يقدر على قراءتها غير العرب مثلنا دون مواجهة أي صعوبة في فهم عباراتها والتوصل إلى رسالتها المستورة بين السطور، ولكنها رغم بساطة اللغة وسهولتها، لا تغض النظر عن ذكر أدنى واقعة، قد حدثت في حياة شخصيات الرواية، حتى تنفخ فيها روحا وتجعلها حية أمامنا أو تبدو أنها جزء حياتنا هذه.

أما طريقة عرضها المنفردة في هذه الرواية فهي رائعة، وشاهدة على إبداعها الفني، وقل أن يأتي بها أحد سوى من يعيش نفس الحياة كما تقول:"وكلما كبرت صفية سنة، صارت أكثر تمردا ومعها ازدادت قسوة قلب أبيها وجربت عذابا جديدا أشد مما جربتها في الماضي حتى سجنت لمدة ثلاثين سنة واختيار العناوين لكل مرحلة من مراحل حياتها وعذاباتها يدل على مهارتها في هذا الفن. وفي الاقتباس التالي، تكشف الروائية أسرار حبها وحب أهل المدينة للبحر على الرغم من أنه كان مصدرا وحيدا للفرح والحزن:

"تحب صفية يوم الجمعة لأنها تنطلق فيه إلى البحر الذي تعشقه كما كل الديرة الذين شبوا على عشقه، وتوارث الأبناء والأحفاد هذا العشق. يدركون أنه مصدر أرزاقهم من أسماك وقباقب ولؤلؤ يغوصون من أجله إلى الأعماق ليجلبوه، وتمخر سفنهم العباب في أسفار طويلة إلى البلدان البعيدة لتعود محملة بالخير. يحبونه رغم أنه غيب الكثير من رجالهم، فترملت النساء الصغيرات وتيتم الأطفال الذين كبروا وهم لا يعرفون آباء لهم. وحده هذا البحر متنفس للمدينة المحاطة بأسوارها الثلاثة، هو مرتعهم وجالب أنسهم"[68].

وفي الاقتباس الآخر، تكشف العثمان عن صدق حب صفية لحسين ابن سماك فتقول:

"منحت صفية جسدها لكل الرجال صار رحل الصحراء الذي تطأه كل البعارين البحر الذي تحوس فيه الهوامير، لكنها ورغم كل المتع لم تكن تصل إلى

[68]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 39

اكتمال نشوتها إلا إذا استحضرت وجه حسين وجسده وتخيلت أنه هو من يراقده، ظلت تحبه وتتمنى لو يعرف بيت الوناسة ويأتي لتشبع منه"[69].

إن الرواية من البداية إلى النهاية دالة على سهولة لغتها ومتانة أسلوبها وتراكيبها وخلوها عن التعقيد اللفظي والمعنوي والاقتباسان الذان سبق ذكرهما قد لا تكونان على ذروة الإبداع الفني ودالة على الكمال الأدبي ولكنهما تدلان على أنها قطعت مسافة طويلة وتحسنت يوما بعد يوم حتى اكتسبت لنفسها اسما لا يحتاج إلى التعريف بين الأوساط الأدبية.

شخصيات الرواية

إن الرواية "حكاية صفية" ليست حكاية فتاة مدمنة للجنس فقط، بل هي حكاية المرأة الكويتية أو المرأة الشرقية التي منذ أن خرجت من بطن أمها وفتحت عينيها، لم تشهد إلا العبودية المكتوبة في قدرها وقدر باقي النساء في العالم العربي وغير العربي ولم تتبع إلا قوانين الخضوع لرغبات الرجال وقوانين المجتمع الذكوري على اسم الدين والعقيدة، فهي حكاية تشمل سائر نساء العالم وقضاياهن الاجتماعية ولو أنها تدور حول ست شخصيات، منها بطلة الرواية صفية وأبوها وأمها وأخوهاوصديقتها خديجة والملا أبوصالح، لا تبعد بطلة الرواية عن الأعين حتى للحظة وما عداها من الشخصيات، فتتفاوت قيمتها السردية حسب علاقتها بصفية، وتنتظر دورتها لكي تظهر مع كل أشكال الحب والحنان لها أوتفانيها في العذابات عليها.

فـ"صفية" بطلة الرواية جميلة، صافية الوجه[70] حسبما تقول الروائية، تتفوق جمال أمها بجاذبية ساحرة لكل عين تراها ولكن هذا الجمال لا يتمكن من

---

[69]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 156-157

اقتحام قلب أبيها القاسي، لأنه يرى فيه شقاوة لأسرتها ومنذ أن رآها في مهدها، تأسر النفوس بجمالها، بدأ يتعوذ من الشيطان ويستغفر ربه:

"اللهم استرها من هذا الجمال، يبدو أنها ستشقينا به"[71].

وذلك اليوم تفقد صفية أباها وتحرم من تدليلها وتكتب في قدرها العذابات التي لم ترتكب ذنبها بعد.

أما أبوها عيسى ابن نايف، فهو رجل نحيل طويل القامة، حنطي اللون له عينان مستديرتان غير حنونتين، شفتان غليظتان ترتاحان تحت أنف منفرج. يعمل قفاصا في أحد الأسواق الضيقة، محل صغير ورثه من أبيه الذي كان حريصا أن يصحبه إلى المحل ليتعلم ويرثها. لم يحرمه الذهاب إلى الملا ليحفظ القرآن ويختمه"[72].

ليس الأمر أنه لا يعرف مسؤوليته تجاه الأسرة والمجتمع ولا يؤديها فهو رجل عادل، فلا يحب أن يظلم أحدا ويغتصب حرمته كما يقول مرة:

_ إذا تزوجت أطلقك، لا يقدر على حرمتين"[73].

لا يرث الإنسان عن الآباء والأجداد المهنة فقط بل يرث الأعراف والتقاليد معها ويكثر في اتباعها خشية من العواقب التي تجنبها آباءهم بسبب خضوعهم لها حتى لا يرى ضرورة النظر إلى صحتها، ويرتكب الجرائم الشنعة بدون الإدراك.

---

[70]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 17

[71]- المرجع السابق

[72]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 15-16

[73]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 15

والإنسان الخائف مثله من المجتمع وأقداره يبذل قصارى جهده في أن لا تضل أقدامه الطريق الذي اختاره له المجتمع كما لا يسمح لمن هو تحت سيطرته بضلالته. إنه إنسان ضعيف، لا يقدر على الخروج على المجتمع وتقاليده، ولا يقدر على اتخاذ القرار ضد آباءه وأجداده، والإنسان الضعيف خطر لكل من لا يقدر على محاسبته، يظلم عليه بدون الخوف من ردود الفعل.

وأمها ثاجبة بنت رشدان الحواي امرأة ضعيفة، تخاف من قدرها وقدر بنتها ولكنها لا تقدر على تغييره فالأم التي لا تقدر على الدفاع عن حقوق بنتها، تكثر في تدليلها حتى يراه أبوها السبب الوحيد في اعوجاج بنتها ولكنها لا تتوقف حتى بعد تهديدات عدة وتواصل فيه.

"اغتاظ أكثر:

_ الصبيان يحارشون فيها وهي ساكتة. كل البلى منك.

_ بعدها جاهل. . باكر تكبر وتفهم.

صرخ حانقا:

_ وأنا ما راح أنظر باكر حتى تكبر وتسود وجهي.

لتخفف عنه غضبه:

_ إن شالله دوم وجهك أبيض.

لم يبتلع ثناءها، هز إصبعه مهددا:

_ شوفي عاد (علم يوصلك ويتعداك)... البنت ما لها طلعة للسكة بعد اليوم"[74].

وبالإضافة إلى ضعفها وعدم قدرتها على الحيلولة دون العذابات علي ابنتها من قبل أبيها، تبدو غير مبالاة بأمور بنتها ولا تعرف أي شيئ سوى ما أخبرها عنه عيسى، وأما الأمور التي كانت تعرفها، تكتمها حبا لها وخشية من العذابات الشديدة عليها ولكنها لا تحاول أن تفهم نفسيات بنتها ولا تكشف أسرار اعوجاجها كباقي الأمهات.

وأخوها هلال علامة الحب والحنان، يشارك في فرحها وحزنها ولا يتركها وحيدة، ويحاول بكل ما في وسعه دائما أن لا يلحق بها أذى:

_ أنا أحبك يا صفية ولا أريد أن تموتي، بس لازم تموتين"[75].

كما يواسيها في أشد الأوقات ولا يرعى بأوامر الأب والأم:

"_ ادخل يا هلال... الشمس حارة.

_ لن أدخل، حالي حال صفية.

صفية بحنان أيدت كلام أمي:

_ إذا تحبني يا هلال اسمع كلام أمي.

إنه حنون عندما لا يفهم أسرار الأجساد، وحين يقدر على فهمها، لا يرى ضرورة فهمها والشيئ الوحيد الذي يهمه هو الحب لأخته دوما إلى آخر أنفاسه.

---

[74]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 23-24

[75]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 25

وشخصيته رؤية تفاؤلية حسبما يقول الناقد السيد على نسر[76]، وإذ بطريقة رمزية، ينتصر المظلوم الذي عانى كثيرا في أقبية القمع، وتنجلي غيوم التخلف بولادة جيل يعرف قيمة أمثال صفية، كأخيها هلال، الذي ما ان تسمح له الظروف حتى يقتحم السجن ويخلـ ـص أخته ساخطا على أبيه وما يحمله من رمزية، كاشفا انقشاع سواد الحياة بعد طول نضال: "لماذا تبكي السماء؟ هل تغسل وجه الارض من مظالم أبيه وأمثاله؟ أم لتبشره بغد أجمل يطل فيه وجه صفية على الحياة؟"[77].

الملا أبوصالح يلعب دور الشيوخ في بلادنا، وها هو الذي يرى أن تربية الجيل الجديد تربية صالحة مسؤوليته ولا يتردد في تأديته ولا يخونها ومكالمته مع أبيها حين كشف له عن فاحشة ابنتها تشير إلى أنه لم يكن يرغب إلا تسوية تصرفات صفية ولم يكن يحقد عليها وينتقم منها بإهانته في الماضي:

"شفتها بعيني راجعة في الفجر، لابسة هدوم عارية، وريحة حلقها تفوح بالمشروب الحرام.

حققت معها فاعترفت وطلبت مني أن أستر عليها، لكني يا عيسى أخاف من رب العالمين، وأخاف عليك من الفضيحة بين الناس، ويشهد الله كم كان الأمر صعبا على لكن لازم تعرف"[78].

ولو أراد الملا أن ينتقم منها حقدا عليها، لكانت فاحشتها منكشفة بين الناس ولكنه لم يقل لأحد:

_ من يدري غيرك؟ عسى ما قلت لأحد؟

---

[76]- جريدة النهار، كتاب "حكاية صفية" لليلى العثمان: الواقع العربي أمام مراياه، العدد 26026، المنشور فيالتاسع من ابريل2014م

[77]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 192

[78]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 173

_ معقول!!هذا شيئ ما ينقال، بس أنت أبوها ولازم تدري"[79].

أما صديقتها خديجة، فهي التي تبلغ بها إلى بيت الوناسة وهي التي تمنع من الدخول في بيت صفية بسبب أفكارها الحديثة التي قد تهديها إلى الضلالة. فهي لا ترعى بقوانين المجتمع وأعرافه، وتطوف حول بيت الوناسة بدون أي تردد. إن شخصية خديجة خطيرة لأنها تشير إلى قدوة، نريد أن نتمثل بها ونعيش حياتنا كيفما نشاء دون حاجة إلى الخضوع لرغبات الآخرين.

وماعداها من الشخصيات مثل "هناء" ربة بيت الوناسة، لا أرى ضرورة ذكرها هنا لأنها شخصية جانبية، لا تؤثر في حكايتها سوى تزيينها وتحويلها من فتاة عادية إلى ملكة الحسن لكي يجذب الزبائن إليها.

وحقا، اختيار الشخصيات ورسم صورها بكل صداقة من أصعب الأمور لأي كاتب والروائية ليلى العثمان قد نجحت في هذا المهمة نجاحا، يستحق التقدير من قبل دارسي الأدب وناقديه، ولو أنها تشفق صفية وتتعاطف معها بسب الجرائر التي جر عليها انحرافها اللا أخلاقي، لا تخون شخصيات أخرى مثل الملا وأبيها فهي ترسمها بكل أمانة ولا تبدو ساعية إلى تشويهها.

سرد الرواية وحبكتها

تشتمل الرواية على 223 صفحة، بداية من إهدائها إلى التي وعدتها الكاتبة قبل موتها، أنها ستروي حكايتها ذات يوم، ثم تتنقل بنا إلى صفحة تالية، فنجد فيها قول الشاعر دخيل الخليفة المنقول من ديوانه "يد مقطوعة تطرق الباب"، وهو "من جناح الموت الرابع حاولت أن تقلد العصافير في رقصتها الأخيرة فخانتها الهواء".

[79]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 173

هذه الحكاية منقسمة إلى 26 حلقة، وفي كل حلقة، تحكي الكاتبة علينا صفحةجديدة من عذابات صفية، فقد اخترعت من الأساليب والحيل الفنية التي جعلت الحدث ساخنا ومثيرا لفضول القاري وملأ روايته بوسائل التشويق المختلفة التي يغري القراء على مواصلة القراءة.

ثم جعلت سرد الحكاية يتقاسمه ساردان: أولهما سادر مشارك هو أخ البطلة هلال الذي يسرد ويعمل على تبئير ما يراه أو يسمعه، فيبدو محدود العلم بكل ما تقوم به أختها،وغير قادر على فهمه بسبب صغر سنه، ومعبرا عن آرائه الشخصية متأثرا بحبه للهلا السادر الثاني الأكثر حضورا ً فهو الراوي الكلي المعرفة الذي ينتمي الى الصوت البراني الحكي، مطلقا رؤية خارجية، تتحكم به الكاتبة التي كانت تنحيه جانبا لتعلن تدخلها غير المبرر أحيانا.

تتطور الحبكة وتنمو حتى تصل إلى قمة الجدية مع نمو الشخصيات والأحداث في الرواية، ويمكن للقارئ أن يلاحظ أن الرواية الموزعة على 26 حلقة منسجمة بين الأحداث، ولا تترك مجالا للغموض والإبهام في ذهن القارئ.

الحوار

إن الحوار في هذه الرواية يتسم بالاختصار، والإفصاح، والإبانة، وانتقاء خير الأساليب، و الجمل والألفاظ المعبرة عن الشعور والعاطفة، وترك العبارات التي لا قيمة لها.وتوافق أجزاءه السياق الروائي، فنرى أن الحوار بين الأب والإبن يختلف تماما من الحوار بين الأب والملا من حيث المضمون والأسلوب، كما يتضح من الأمثلة:

"تابع أختك، لا تخليها تطلع الشارع، وإذا سوتها اضربها.

_ يبه ما أقدر هي أكبر مني.

_ قال أبي:

_ حتى لو هي الأكبر، أنت الولد وهي البنت امسك العصا والعن خيرها.

_ يبه أنا أحبها، ما أقدر أعورها.

ضرب رأسي:

_ (حبتك القرادة)، أختك هذه شرفك ولازم تحافظ عليها.

لم أفهم، سألته:

_ يعني شنو شرف؟

هدأ أبي من لهجته، أحاط كتفي بذراعه:

_ شوف، . .لو صار لأختك شيئ موزين، تحط رأسنا في الطين، البنت لازم تكون عفيفة وما يلمسها أحد غير زوجها.

دافعت عنها:

_بس يبه أنا ما أشوف الصبيان يلمسونها، هي بس تحب تلعب معاهم[80].

أما حوار الأب مع الملا، فيختلف مضمونه وأسلوبه تماما حيث يتسم بالنضج فيه نظرا إلى سنهما:

_ يا بو هلال، . عندي موضوع سوف يزعجك.

ضحك عيسى:

---

[80]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 54

_ وما دام سيزعجني لماذا تقوله؟

لم يقدر أن يرفع إليه نظره، أرخى عينيه:

_ لأن الموضوع يخص أهل بيتك[81].

هذان الحواران تدلان على أن الروائية ليلى العثمان تمتلك موهبة عظيمة في الفن الروائي وبالإضافة إليها، تقدر على جعل الحوار بين الفصحى والعامية حسب منزلة الشخصيات الاجتماعية.

زمان الرواية ومكانها

مما لا ريب فيه بعد قرأة كتاباتها أن ليلى العثمان تحب الكويت القديمة وشوارعها التي كانت ذكرياتها السعيدة والمريرة مخزونة في ذهنها حتى بعد مرور العقود، وترغب في مشاركتنا فيها، وهذا الحب لها قد أجبرها على اختيار الشخصية، التي عاشت الفترة ما قبل النفط وما بعدها كبطلة لروايتها.

وزمان هذه الرواية ممتد على نحو أربعين عاما، أي منذ طفولة صفية ودخولها السجن وهي ابنة السادسة عشرة لتخرج منه وهي على مشارف الخمسين. الزمن تتابعي كرونولوجي تتخلله بعض الانزياحات الاسترجاعية الداخلية الأقرب الى التواتر التكراري لتذكير المتلقي ببعض ثوابت النص.

والفرق بين الكويت القديمة والجديدة من خلال العبارة التالية واضح:

"ليس طلعتني من السجن؟ هذه دنيا لا أعرفها"[82].

---

[81]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 172

[82]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 214

أما مكانها فهي الكويت ومعالمها السكنية وشوارعها وبيوتاتها وتتعدد دلالاتها بشكل ملحوظ، فالبيت الذي يعتبر مركز تعليم الأبناء وتنشئتهم، يشبه بالسجن بالنسبة لهم بسبب كونها مكانا للعزل الأسري وتربية الأبناء في حجزهم الانفرادي في غرفة، ومنعهم من الأكل في انتظار موتهم أو إصلاحهم، والسجن الذي تقضي فيه صفية ثلاثين عاما، تدل على مكان لإعادة التأهيل، أو الحجز والعزل عن ممارسة الإجرام، وممارسة العار.

وعلى النقيض، بيوت الوناسة التي كانت تذهب إليها الفتيات في الماضي، وتسمى بالفانيات وتتعرض لعقوبات شديدة تصل إلى الموت، مقموعة من الذاكرة الكتابية، فلم تعد توجد آثارها في أدبيات الكويت، وهي تدل على ممارسة الرذيلة في الماضي.

أما البحر، فهو الفضاء الوحيد الذي يتخذ دلالة إيجابية منذ البداية إلى النهاية، ويحمل دلالة الانفتاح والحرية والانطلاق والاختلاف، بسبب كونه مكانا لتجمع الفتية والفتيات والتقاء الأسر جميعا. فكل الأماكن السابقة تشهد على عذابات صفية أو تسبب فيها سوى البحر وفضاءه بدلالاته الخصبة والغنية.

أما تصنيف هذه الرواية من حيث الفن، فهي رواية اجتماعية واقعية، تطرح أمامنا أسئلة عديدة، لا بد من البحث عن جوابها، وتكشف لنا عن أسرار المجتمع العربي المسكوت عنها والجرائم الشنيعة التي ارتكبوها ضد المرأة حفاظا على شرف الأسرة والمجتمع، فالمرأة في المجتمع الشرقي تحمل عبء شرف الأسرة وحيدة إلى آخر أنفاسها ولا تقدر على الثورة والتمرد عليها.

ولكن هذه الرواية تثور على هذا التمييز بين أفراد المجتمع على أساس الجنس، وبطلة هذه الرواية تسعى بكل ما في وسعها إلى التحرر من الأعراف

المتعفنة التي قد أنهكت الأجساد منذ عصور ولا ترغب في السماح بأن يكون الإنسان إنسانا.

ونهاية هذه الرواية مفتوحة، تدعو الجميع إلى استنباط العبر والدروس فيها على حسب التفقه والميلان، ولا تفرض آرائها على الأخرين حسبما يقول الدكتور على العنزي:

"إن الرواية جميلة ولغتها بسيطة وأنها لا تقدم مواعظ للقارئ بل تدعه يستنبط العبر والدروس من بين السطور"[83].

والفترة التي قضتها صفية في السجن لها حكاية أخرى، تعد الروائية أنها ستحكيها ذات يوم:

_ آآآه يا أخي. . .للسجن حكاية أخرى فظيعة قد أحكيها لك ذات يوم"[84].

[83]- الجريدة، العنزي: الجسد في "حكاية صفية" صورة للتمرد، العدد 3104، صدر في الواحد من أكتوبر 2013م

[84]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 223

الفصل الثاني

الفكرة الرئيسة في الرواية

هذه الرواية "حكاية صفية" حكاية فتاة كويتية، قد عاشت الثلاثينات من القرن الماضي وكافحت في سبيل الحصول على الحرية من التقاليد البالية والأحكام والأعراف القديمة التي كانت الأمة العربية مشدودة ومكبولة بها من حقبة تاريخية ممتدة. إنها تشرح جسد الواقع العربي، وتعريه، وتضعه أمام مراياه عندما غض نظره عن كنه الحقيقة عقودا وأجيالا،وتتخذ من الرغبة بأجلى صورها قضية محورية تشكـ ـل العصب الرئيسي للنص، منطلقة منها لإعلان مواقف ورؤى في أمور كثيرة، آن الأوان لتنقيتها وتصفيتها.

إن الرواية تدور حول حياة صفية وقضاياها، وتركز على أحداث متعلقة بها، وتنمو مع نمو شخصيتها حتى تشهد حرمانها من التدليل الأبوي وفرصة اكتساب العلم لتهتدي به، ولا تنتهي سلسلة العذابات عليها بل تزداد قسوة يوما بعد يوم حتى تدفع من السطح لكي ينقطع ربطها مع الحياة وتمنع من الأكل والشرب لكي تموت جوعانة، بعيدة عن عيون أهل الديرة.

لا تموت صفية من الحرمان ولا من العذابات التي تفتح أبوابها عليها بسبب انحرافها السلوكي تلبية لرغبات جسدها الظامئ ولا تقدر أن تتوب أو تصبر فيصدر الأمر بالعقاب الآخر وهو سجنها إلى آخر عمرها حتى تتوب أو تخضع.

إن الرواية تحتوى على معان وأفكار، بدأت تتأثر بها الروائية منذ نعومة أظفارها ومن أقوى أفكارها وأروعها هي فكرة تحرير المرأة من الأعراف البالية

وتمكينها من التكاتف مع الرجال في شتى مجالات الحياة وتوفيرها الفرص المتساوية للنمو العقلي والفكري لكي تؤدي مسؤولياتها تجاه الأسرة والمجتمع، ولا تتخلف في سباق الحياة.

وهي فكرة جديدة بالنسبة للمجتمع الكويتي الذي لا يزال يلتزم بالسكوت عن الجرائم التي ترتكب بها باسم العقيدة والدين ولو أنها جذبت انتباه الأدباء والشعراء في المجتمع العربي وكتبوا الروايات والمسرحيات وقرضوا الأشعار نقدا على سوء حظ المرأة، تفوقت كتابات الأديبة ليلى العثمان جرأة ووضوحا.

ومن خلال هذه الرواية تثبت الروائية وجود جرائم الشرف في المجتمع الكويتي، وهذه هي الفظيعة الاجتماعية التي يعاني بها المجتمع الهندي بل المجتمع الشرقي، والتي تدفع فيها المرأة حياتها نتيجة خطأ، أو انحراف عن الطريق، أو حتى محاولة التحصل على قدر ضئيل من الحب من مجتمعات جافة، لا ترعى به على أنه حاجة طبيعية للإنسان، وإذا لم ترع به على أنه باب من أبواب الشيطان، يجب على أفرادها أن لا يجترأوا عليه، ولكنهم مثل الذئاب والنعاج يغرونها بوعودها المعسولة حتى تقع في المحظور العرفي والديني أو في مقدماته البسيطة، أو حتى تدخل ضمن حيز الشك العائلى، ولكن نهاية كل هذه الجرائر، لا تكون سوى الموت أو النفي الاجتماعي أو الحرمان من كل ملذات الحياة الطبيعية المتمثلة في تكوين أسرة والحياة بحرية وإنسانية.

إن ظاهرة "جرائم الشرف" عامة في دول شبه القارة الهندية مثل الهند وباكستان وبنغلاديش وقد أرقت هذه الظاهرة أهل العلم والفكر في البحث عن أسباب وجودها في المجتمع، وأولا عندما قرأت عن هذه الظاهرة المتواجدة في مجتمع مثل المجتمع الكويتي المحافظ، لم أصدق لأول مرة ولكني عندما قرأت مزيدا

من الكتاب والأدباء حول هذه الظاهرة، بدأت أشعر أن المرأة في هذا المجتمع خصوصا في الفترة ما قبل النفط لم تكن تتمتع بالحرية تماما وكانت تواجه مصائب عدة في إثبات وجودها.

المجتمع الهندي مثل مجتمعات شرقية أخرى، لا تتحمل الجرائم التي ترتكبها المرأة، وكم من فتاة قد دفعت قيمة هذه الجريمة أي الحب بحياتها بسبب التفاوت الطبقي أو الاختلاف الديني أو على أساس الحالة الاجتماعية ولكن على النقيض، لا يؤاخد الرجل بكل ما يرتكب به من الجرائم الشنيعة مثل الزنا والقتل لأن المرأة هي تعتبر ضعيفة، لا تقدر على الدفاع عن نفسها وحقوقها والرجل بسبب كونه ولي أمرها لا يؤاخذ ولا يعاقب.

المجتمع الكويتي يواجه نفس القضايا النسائية بشكل أو آخر لأن "صفية" تؤاخذ وحيدة بكل ما حدث من الفاحشة على سطح المنزل مع حسين ابن السماك بل تعاقب أشد العقاب حتى تسجن لمدة أربعين يوما محرومة من الأكل والشرب وبجانب آخر،لا يصدق أبو حسين أن ابنه قد تجاوز الحد، ويرفض أن يزوج ابنه مع فتاة اشتهرت بسبب طول لسانها وزفارته.

ولم تكن تصرفاتها اللا أخلاقية حائلة دون أمنيات أبيها فقط، بل يعرف أبوها ذلك اليوم أن الفرق بين الأديان والعقائد قد يكفي لإنهاء علاقة حب:

"هب أبو حسين واقفا. حط كفيه على خاصرتيه وأخذ يهتز وبصوت لا يخلو من سخرية"

_ والله خوش[85]. تريد أن يتزوج ولدي بنتك المعيوبة.

---

[85]- خوش: كلمة تعنى: زين

شابت وجه عيسى ألوان دكناء، وتمرغ صوته بطعم حقده المكتوم:

_ ولدك هو الذي عاب ابنتي والمفروض أن يستر عليها.

_ ولدي شيعي ولا يمكن أن يتزوج سنية.

أراد لأي كلمة سوء أن تذوب في فمه:

_ وما الفرق؟ كلنا مسلمين.

هزئ أبو حسين:

_ الفرق عندكم وعندنا وأنت تعرف هذا الشيئ.

كظم عيسى غضبه، وبصوت ذليل:

_ يا أخي خلينا إحنا نبدأ ونكسر هالفروق.

_ ما شاء الله! لو كان العكس وولدك هو الذي اعتدى على بنتي لما قبلت أن تزوجه شيعية، على من تضحك يا عيسى؟[86]

البنت المعيوبة في المجتمع الشرقي عبء على أسرتها لا بد من النجاة منها على أية حال، وهي قد تكون حياتها:

_ روح اقتلها واغسل عارك أحسن لك[87].

كم يكون صعبا تربية بنت والحفاظ على جسدها وروحها معا لأبويها حتى يستطيعا تسليمها إلى أحد قد يكون غريبا لها، وفي حالة اعوجاجها السلوكي، يجب على المجتمع أن يعامل معها كما يعامل مع الأبناء في حالة اعوجاجهم.

---

[86]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 95-96

[87]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 96

إن هذه الحكاية ليست مجرد حكاية الألم والحزن، بل تأتي بالرؤية التفاؤلية بالنهاية وهي دماثة أخيها معها ولو أنها قد تجاوزت سائر الحدود والقيود المفروضة عليها من قبل المجتمع، يستمر متعاطفا مع صفية منذ نعومة أظفاره، حتى تقدمه بالسن، وكونه أبا لفتاتين، لم يشعر بأي خجل من تصرفات أخته الواضحة له بعد مرور السنين، ولا يتركها في السجن بل يخرجها منه حسب وصية أمها ويواسيها في حزنها وهمها، وترى الكاتبة فيه جيلا جديدا، يتعامل مع المرأة بالتسامح ويقدر على الشفقة والتعاطف معها ولا يعتبرها عبءا على الأسرة أو المجتمع، ولا يهرب من المصائب والآلام بل يواجهها بالصبر والمثابرة.

وقد ضمنت الرواية قضايا عدة متعلقة بالمرأة مثل تعليمها وتمكينها من أن تلعب دورا رياديا في بناء المجتمع الصالح والمشاركة في تربية الجيل الجديد تربية صالحة، وتحريرها من الأعراف البالية والتقاليد المنهكة لكي تقدر على العيش مرتاحة البال وبعيدة عن عذابات الحياة وحريتها لا تعني ضعف الجنس المخالف أو فضله عليها بل هي حقها الأساسي الذي لا بد لها من التمتع بها مثلما يتمتع بها الرجل، وليس من حق أحد مهما كان، زوجا أو أبا أو أخا، اختطافها منها.

ولا يسعني إلا أن نعترف أن السيدة ليلى العثمان في روايتها، تصور تصويرا مؤلما للمرأة الكويتية في العهد القديم وتكشف عن قضاياها الاجتماعية بكل جرأة ومتانة، وما من قضية متعلقة بالمرأة إلا وقد أتت بها فيها أو في كتاباتها الأخرى مثل "وسمية تخرج من البحر" أو "المحاكمة" فهي التي تدافع عن حقوقها وتقف بجانبها وتثور على جميع من يؤيد تطويقها وأسرها بالسلاسل.

إن البحر في هذه الرواية يدل على الحرية وهو مصدر الفرح والأمل بالمستقبل اللامع وما سواها من الأماكن والشوارع، لا يدل إلا على اليأس والحزن والملل من هذه الحياة.

"البحر. . . البحر. . .

رنة الشوق تفيض من حنجرتها، تريد لقاء الأزرق الذي كانت تحبه، وتشتاق عمقه الدافئ. هل تهفو روحها للسباحة أم تود الاغتسال من وسخ السجن النابت على جسده كما الطين؟

_ خذني إلى البحر.

كررت طلبها، ترنيمة مشبعة باللهفة والوجد. هل تحتاج ليزيل حشوفة الماضي وظلمته؟ أم تراها!. . .

هزني الخاطر.

ماذا لو كانت تريد أن تعطيه عمرها؟ هل تفكر أن. . . .

لا . . . لا أصدق. . . كل هذا الشوق ليس نداء للموت. بل هو نداء حياة[88].

إن الروائية من خلال تصوير البيت والبحر ربما ترغب في الإشارة إلى الفرق بين هذا وذاك لأن البيت الذي يلجأ إليه كل من أصابه الخوف والورع، أغرقها في العذابات القاسية وسبب في حرمانها من ملذات الحياة، ولكن البحر الذي لم تكن تقرب إليه خوفا من الغرق فيه أو اتباعا على أوامر أمه بأن لا تلقي نفسها في الخطر، دسها في أعماقه مع كل عيوبها وجرائمها التي ارتكبتها طيلة عمرها.

---

[88]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 215

"كان البحر مائجا مستعدا لاقتطاف حنينها الأول، وسر أسرارها ليحفظه في عمقه. السماء تدثره بزرقتها والنوارس البيضاء ترقص في فضائه ثم تغطس مناقيرها لتعب الماء أو تلتقط سمكة شاردة. الأمواج ترتطم بالصخور وتتطاير أكاليل الزبد في الهواء كرذاذات حليب طازج"[89].

والفكرة الرئيسية التي لا يمكن لباحث أو محلل تحديدها من بين الأفكار المتنوعة التي تدور حولها الرواية ولا حصر لها، لأن الرواية بحر واسع للأفكار العديدة ومع ذلك يمكننا القول أن الفكرة الرئيسية التي تدور حولها رواية "حكاية صفية"هي حرية فردية غائبة تماما عند المرأة الشرقية، وحرية من العذابات المكتوبة في قدرها منذ ميلادها للحفاظ على شرف الأسرة والمجتمع، وحرية من القيود المفروضة عليها التي تجرح روحها لكى يبقى جسدها عفيفا.

خلاصة القول أن "حكاية صفية" صورة للتمرد على الأعراف والتقاليد البالية التي عانت السيدة ليلى العثمان، ولا تزال تعاني العديد من المشاكل بسبب كتابتها الجريئة ضدها، حقا إن هذه الرواية تتميز بالجرأة غير المسبوق عنها وتدافع عن حقوق المرأة الأساسية التي حرمت منها منذ عصور ولا تتمكن من الاحتجاج على هذا الحرمان وكيف تقدر عليه وأصواتها مختنقة وأجنحتها منكسرة.

[89]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 216

الفصل الثالث

ملامح بارزة في الرواية

إن الرواية "حكاية صفية" ليست بأطول الروايات ولا بأقصرها بل هي أوسطها ومشتملة على 223 صفحة و26 حلقة، وتكمن بين سطورها قضايا مختلفة وموضوعات متنوعة، تتعلق بالمرأة الكويتية خاصة والمرأة العربية عامة، والسعي إلى اكتشافها جميعا أمر يؤدي إلى تطويل البحث، ولذا سوف أركز على بعض منها.

ومن الملامح البارزة للرواية هي اختيار الروائية ليلى العثمان عناوين حلقاتها، فهي واضحة وذات رسالة مختفية في سطورها وعباراتها مثل عنوانه الأول "حروق التاوة" فهو مثل الحلقة أول عقاب، ذاقت طعمها في طفولتها:

"تلك الليلة خمدت النار في موقدها، لكنها لم تخمد في قدمي أختي ولا في قلبي وقلب أمي"[90].

ولا ريب فيه أن العناوين في هذا الرواية تشوق القارئ إلى أن تواصل القراءة ولا يتوقف حتى الانتهاء من الرواية، ولغتها السهلة تجعل هذه الرواية مثيرة فضول القارئ للغاية، أول شيئ سيشعر به القارئ بعد قراءتها أنها خالية من التعقيد اللفظي والمعنوي وتكشف عن عبرها بكل صراحة وجرأة.

_ لا تقلقي يا صفية. ستغفر لك السماء.

أثلجتني بردها العنيف:

---

[90]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 12

_ لا أطلب المغفرة. . . لو كانت السماء رحومة لسمعت نداءاتي وأنا في محنتي"[91].

ومن ملامح هذه الرواية هي أنها تتحدث عن قضية "حرية فردية" وتقف مع صفية وتتعاطف وتشفق عليها ولو اتخذت الأقوى عدوا لها وهو المجتمع وأعرافه بسبب انحرافاتها السلوكية.

"_ يا صفية يكفيك ما عانيت من السجن، الآن لازم تعيشين عمرك.

تفجر بركان صمتها. . . التهبت أرضها الجافة، انخرطت في بكاء يسكب في روحي المرارة وانغرزت شهقاتها في صدري انغراس السهم في جسد الضحية. قالت بصوت مبحوح وآسف:

_ أي عمر. . ؟ وكم بقي في منه؟

شل أساها لساني. تذكرت أبي وحقدت عليه. مددت كفي ثانية، حضنت كفها فأحسست مثل جلد الدب الميت قلت:

_ انسى الماضي يا صفية.

أصدرت آهة طويلة وسألت:

_ أين ستأخذني؟

_ إلى بيتي، سترين زوجتي وبناتي.

توسلت وفي صوتها حقول من العشب الجاف:

_ لا يا هلال. . . الله يخليك، قبل بيتك خذني إلى البحر"[92].

---

[91]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 220

يبدو دائما أن ليلى العثمان قد عاشت نفس العذابات التي مرت بها صفية لكي تكشف لنا عنها وتخبرنا عن قساوة أبيها، ولذا يجد القارئ أن هذه الحكاية أقرب إلى حقائق المجتمع الكويتي كما تجدر الإشارة إلى هذه الحقيقة أيضا أن مرارة حياة الكاتبة ظهرت على أوراق قصصها ورواياتها، وهذه الحكاية تدل على أنها لم تنسها بعد. وربما وقوفها مع الضعفاء قد يعطيها لحظة من الراحة و الطمأنية واتخاذ المرأة موضوعا لكتاباتها قد تكون وسيلة من وسائل تسلية نفسها، والاقتباس التالي يشير إلى حب صفية للبحر والحرية:

تتحسر صفية وهي تشاهد الأولاد والبنات أحرارا يلهون ويغطسون وهي جالسة تحرس هلال، لكنها لا تحقد عليها، حبها له يطغي على وناستها تبدأ تلعب معه بالرمل والقواقع، بينما عيناها بين لحظة وأخرى تتجهان إلى البحر. بحسه الطفولي يدرك حسرتها يلتفت إلى أمه:

_ يمه بروح البحر مع صفية.

تنتشي صفية تعرف أن أمها لن ترفض طلب هلال.

تنظر أمها إليها بنظرة تهديد:

_ والله لو صار له شيئ أدفنك في هذا البحر.

بكل فرحها تحمل هلال وتركض به. . . وهناك تجلس في الماء وهو في حضنها تلاعبه وتغسله وهي تغني له:

(لبحر هذا بحر نا. . . نعمة الله علينا. .)، وتتراقص معه حتى يتعب فتعود وهي تحمله على ظهرها سعيدا يردد كلمات الأغنية"[93].

تتميز روايته أيضا بالجرأة التي لا يوجد لها مثال في تاريخ الأدب الكويتي وتتناول فظيعة "جرائم الشرف" الاجتماعية والدينية المسكوت عنها في مجتمعنا

---

[92]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 214-215

[93]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 43-44

الشرقي، فتصور ليلى العثمان صورة الحياة الكويتية القديمة بكل صراحة حتى تكشف عن حقيقة، لا يعرفها إلا قليلا، وهي وجود بيت الوناسة التي تذهب إليه المرأة وتغرق في اللذائذ المحرمة:

"لكنها الرعناء لا تفي بوعد ولا تصغي لنصيحة. فشيطان جسدها يطير بها إلى جحيم الملذات. تمادت حين لم تلتقطها عين وهي تنزلق من الدريشة ولا حين تعود إليها قبل الفجر مثل خفاش ليل يبحث عن ملاذ"[94]

وإن في تصويرها صورة الحياة الكويتية القديمة، يظهر حبها للكويت القديمة وشوراعها وبحرها وتأتي بكل ما في ذكرياتها من الهموم والآلام وتبسطها على الأوراق لكي يراها الأناس ويحسوا بها.

ومن كتاباتها الجريئة، تتحدى الحكومة وأرباب الدين ولا تخاف من العواقب التي قد تنهي حياتها الأدبية أو قد تكون سبب إصدار الأمر بسجنها ولو أنها قد حوكمت بسبب جرأتها الأدبية مثل روايتها "المحاكمة"، ولكنها أسيرة لحكاية صفية ولباقي الحكايات التي لا زالت مختفية بسبب عدم قدرة أحد على استماعها وإعطائها صوتا لكي يسمع الآخر.

هي حكاية أسرتني فنيا ً وعاطفيا ً . حكاية للقارئ الذي لم يقرأ كتابي بعد، عن فتاة بعمر المراهقة، تعيش في جو محافظ على عادة الأجواء العربية، يتملـ ـك جسدها ذلك الشبق الذي لا تعرف السيطرة عليه. صفية عنيدة، تنحو دائما ً إلى فعل الأشياء الممنوعة وغير المسموحة في مجتمعاتنا. صفية تحب اللعب مع الصبيان، الأمر الذي يؤدي بها في النهاية إلى الانحراف، والانتهاء في بيت للدعارة مصر ـح به يدعى "بيت الوناسة"وباختصار، هي تفعل ما يـ ـمليه عليها جسدها، ما استدعى عقابها وحبسها من قبل والدها في غرفة لا تدخلها الشمس، ثم تسليمها إلى القوالتي تتولى حبسها لمدة ثلاثين عاما ً ، تنتهي بعد موت الأب ورغبة الأخ

[94]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 160-161

بتخليص أخته من سجنها ليجد بدلا من الفتاة الجميلة التي كانت، امرأة قبيحة بانت السنوات على وجهها وهيكلها"[95].

ومن ملامح هذه الرواية أنها تتحدث عن التمييز بين الرجل والمرأة وحرمانها من الحرية التي يتمتع بها الرجل وحرمانها من الحقوق الأساسية مثل حق التعليم. إن الروائية ليلى العثمان من خلال هذه الرواية، تحاول إثبات وجودها في المجتمع وإعطاء حقوقها المسروقة منها.

"كنت في السابعة من عمري حين قرر أبي أن أذهب إلى الملا أبو صالح لأتعلم القرآن. كنت أكره هذا الملا لأنه ذات يوم فتن على أختي، لكن الذي يأمر به أبي لا بد أن يطاع، فهو صلب الطبع والقلب. أمي فرحت وبلطف شديد قالت له:

_ ليش ما تخلي صفية بدرس عند المطوعة[96] يمكن الله يهديها وتعقل.

رفض أبي بشدة فحاولت:

_ يا عيسى كل البنات يتعلمن القرآن.

نظر إليها مذكرا:

_ بنتك ليست كباقي البنات. باكر تنخاش من المطوعة وتهيت في الشوارع.

لم تحاول أمي بعد ذلك وكأن أبي نتهها لأمر غاب عنها"[97].

وفي الاقتباس التالي، تشير السيدة العثمان إلى أن الرجل باعتباره ولي أمر المرأة، يقدر على تسوية سلوكها في حالة الاعوجاج فيها وقد يضربها ويسجنها حتى يقتلها ولكن المرأة بكونها أم الجيل الجديد وأخته وزوجته، لا تتمتع بنفس القدرة على أولادها وإخوتها وزوجها ولماذا تحمله في بطنها شهورا وتنزف نزفا شديدا؟ أليس

---

[95]- جريدة ألف ياء، ليلى العثمان: أكتب بحرية ولا أتتقد الإثارة، صدر في التاسع عشر من ديسمبر 2013م

[96]- المطوعة: التي كانت تدرس البنات القرآن الكريم

[97]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 53

من حقها أن تعامل بشفقة وتسامح؟ ولماذا تصبر على حرمانها لكي تتحقق أحلام إخوتها؟ أ لا تستحق لحظة من الحب والحنان:

"رغم صفرسني، بدأ أبي يحرضني على صفية ونحن في طريقنا إلى الملا:

_ تابع أختك، لا تخليها تطلع الشارع، وإذا سوتها اضربها.

_ يبه ما أقدر هي أكبر مني.

قال أبي:

_ حتى لو هي الأكبر، أنت الولد وهي البنت امسك العصا والعن خيرها.

_يبه أنا أحبها. ما أقدر أعورها.

ضرب رأسي:

_ (حبتك القرادة). أختك هذي شرفك ولازم تحافظ عليها.

لم أفهم، سألته:

_ يعني شنو شرف؟

هدأ أبي من لهجته، أحاط كتفي بذراعه:

_ شوف. . . لو صار لأختك شيئ مو زين، تحط راسنا في الطين. البنت لازم أن تكون عفيفة وما يلمسها أحد غير زوجها.

دافعت عنها:

_ بس يبه أنا ما أشوف الصبيان يلمسونها، هي بس تحب يلعب معاهم.

قرص خدي:

_ يا (الخبل). . اليوم تلعب معاهم وباكر يلعبون فيها.

تحمست:

_ والله أضربهم.

دفع برأسي إلى الخلف:

اضرب أختك ومالك شغل بخلق الله"[98].

كما يحرضه أهل الديرة على تسوية اعوجاجها السلوكي:

"وخلق الله ما تركوني بحالي، كانوا يحدقون بي بعيون حمراء.

أحدهم ضرب قمة رأسي بكفه وهو غاضب:

_ لا تخلي أختك هايتة، إضربها.

أجبته بذل:

_ هي أكبر مني.

_ حتى لو. . . هي البنت وأنت الولد، يعني الرجال"[99].

ومن ملامحها البارزة هي أن الروائية تكشف عن أسرار المجتمع الكويتي المحافظ المختفية وتقوم به بكل صداقة وأمانة ولا تسعى إلى فرض الآراء على القراء وإيقاعهم في الأزمة الفكرية بل تمنحهم حرية استنباط العبر والدروس المستورة بين السطور.

ففي اتخاذها صفية موضوعا لها واختيارها كبطلة الرواية إشارة إلى أن حكايتها تؤلمها ولا تقدر على صبرها وحيدة فتنفخ فيها روح الحياة وتحييها من خلال روايتها هذه لكي تجعل الجميع شهود عيان على ما مرت به صفية من تفانين أبيها في العذابات:

_ سامحني يا هلال عذبتك معي.

_ عذابي لا يساوي ذرة من عذاب سنواتك.

---

[98]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 54-55

[99]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 55

رفعتها وشعرت بها خفيفة وكأن البحر أذاب كل ملح جراحها"[100].

إن صفية التي كانت تسحر العيون بجمالها، قد أنهكتها عذابات عمرها ولم يبق منها سوى جسدها الظامئ المجروح. تغيرت صفية تماما ولكنها لم تكن نادمة على ما ارتكب به جسدها ولم تكن تكره جسدها الذي سبب في تطويل عمر عذاباتها:

_ هل تندمين الآن يا صفية؟

غضب صوتها:

ليش أندم؟ لن استحي منك، لقد أمتعت جسدي واستمتعت. ولست بنادمة.

صمتت.

رغم جرأتها التي فاجأتني شعرت بها تثير إعجابي:

(عجيبة هي صفية. . .لا تندم، ولا يبدو أنها تكره جسدها أ تتبرأ منه رغم كل الذي سببه لها من عذابات)[101].

وإن من أهم الملامح البارزة هي أن المجتمع الكويتي مع جميع مظاهره ودلالاته يشبه بالمجتمع الهندي في أشياء، مما سبب في مفاجأتي وإثارة فضولي عندما عثرت عليها خلال قراءتي هذه الرواية، والنظرية في المرأة في بلادنا لا تختلف عن نظرية المجتمع الكويتي القديم فيها فنرى أن المرأة في المجتمع الهندي لا تقدر على الحضور في المدارس والجامعات ولو أن بعضهن قد نجحن في كسر الحواجز التي تحول دون نجاحها في الحياة ولكن معظمهن ما زلن غير قادرات على أمورهن.

كما لاحظت في هذه الرواية التمييز بين الرجل والمرأة وهي ظاهرة عامة في بلادنا وكنا ومازلنا غير قادرين على تحريرها من الأعراف البالية التي عانت بسببها كثيرا ولا بد للجميع رجالا ونساءا من التحرر منها إذا أردنا المضي قدما في حياتنا.

---

[100]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 221

[101]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 222

وبالإضافة إلى ما سبقت به، طريقة تعليم الأبناء المروجة في الهند قبل عقود، كانت على غرار المجتمع الكويتي القديم فكان البنين والبنات يحضرون في دروس الأستاذ الخاص لتعليمهم القرآن الكريم وطريقة الوضوء والصلاة، ولم يكونوا قادرين على مواصلة الدرس بعد تمكنهم من قراءة القرآن وتعلم طريقة الوضوء والصلاة إلا قليلا منهم. أما ألعاب الأولاد في العهد القديم فهي مثل ألعاب، كنا وما زلنا نلعب في قريتنا:

"لم تكن خديجة بالدهليز. . . كانت تنتظرها في الخارج عند العشبة لتبدأ وصلات اللعب، لكن صفية تترك خديجة تلعب مع البنات (الخبصة، والحجلة، والبروي) وتنضم إلى الصبيات في لعبة عماكور[102].

هذه هي بعض الملامح البارزة لهذه الرواية وهناك ملامح أخرى أيضا ومنها استيعاب الرواية قضية الدين ودورها في بناء المجتمع والتعريف بأهم القضايا النسائية بل الإنسانية، والتحدث عن الأعراف والبدع التي حالت دون نجاح المجتمع وازدهاره، وتركيزه الشديد على قضايا المرأة الكويتية والعربية قبل اكتشاف النفط وغيرها من الملامح التي لاتستوعب الحد والحصر، وما ذكرنا هناك من ملامح لهذه الروايات، هي من أبرز الملامح الموضوعية والفكرية التي احتوتها الرواية.

[102]- عماكور: يقوم اللاعبون باختيار أحدهم عن طريق القرعة ويعصبون عينيه بقطة قماش أو أزار أو غترة ثم يداعبونه بلمسه تارة أو بدفعه تارة أخرى فيحاول الإمساك بهم ولكنهم يحاولون الفرار منه بخفة ورشاقة مرددين "عماكور طاح بالتنور"،وإذا حالفه الحظ واستطاع الإمساك بأحدهم فسوف يأخذ مكانه ليكون محور اللعبة فتعصب عيناه ويؤدي الدور نفسه.

الفصل الرابع

سلبيات الرواية

هناك مثل شهير يتداوله الناس ويتناقلونه وهو "لكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة" و وفقا لذلك، لا يخلو أي عمل إنساني من شوائب النقص والقصور، والكمال لله تعالى فقط. فهذه الرواية مع أنها تحمل بين جنباتها مثلا أدبية رائعة ونكهات رواية فنية ولمسات بلاغية، لاتخلو من بعض الأمور (السلبيات) التي تغض من شأن الرواية الفنية الناضجة.ومن أهم ما عثرنا من خلال الدراسة هو أن حكاية صفية حالة خاصة للغاية ولا تتمثل بالمجتمع الكويتي أو العربي كما يقول الدكتور اسماعيل فهد:

"إن رواية "حكاية صفية" هي حالة خاصة للغاية وليست صفية نموذجا للفتاة أو المرأة الكويتية"[103].

كما يؤيد موقفه السيد محمد جواد قائلا إن "العثمان تشكل حالة خاصة في السرد والبوح كويتيا وخليجيا وعربيا"[104].

---

[103]- الجريدة، العنزي: الجسد في "حكاية صفية" صورة للتمرد، العدد 3104، صدر في الواحد من أكتوبر 2013م

[104]- المرجع السابق

هذا القولان غيض من فيض من الأقوال التي وردت نقدا على صفية وشخصيتها المدمنة للجنس وكم مرة قد اعترف أبوها وأمها أن صفية ليست كباقي البنات:

"أختك غير كل البنات (بازع) ولا تلعب إلا مع الصبيان"[105].

كما تقول أمها أن الجن يخاف منها:

تقول لأمها:

_ البيت الخالي يسكنه الجن.

تقرص خدها بلطف:

_ والله ما غيرك جنية، والجن يخاف منك"[106].

هذا لا يعني أن صفية بسبب إدمانها الجنسي، وانحرافاتها السلوكية، لا تستحق الشفقة والمحبة من الأبوين وأهل الديرة كفرد المجتمع، بل تحتاج إليها أكثر من باقي البنات لكي تنسى رغبات جسدها ولكنها قد فشلت في فتح قلوب القراء، ورغم نبل القضية التي تطرحها الرواية باتجاه ما، لا يقدر القارئ العربي الذي تم تربيتها ضمن تقاليد شرقية ترسخ فيه حرمة الجسد، وعدم إباحيته، خاصة بالنسبة للمرأة، على التعاطف مع صفية ذات الجسد الراغب والمنطلق في رغباته بلا حد ولا قيد، وإنه من الغريب أن الروائية لا تحاول حتى لمرة واحدة، في البحث

[105]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 14

[106]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 59

عن حلول طبية أو نفسية أخرى لهذه الحالة باعتبارها حالة مرضية، بدل أن تتركها معذبة أشد العذاب في السجن الذي قضى على عنفوان شبابها وعمرها،

أما أم صفية، فلا تحاول في المعرفة عن أسرار جسدها الظامئ والبحث عن وسيلة، ترويه وتتركها مشغولة في مهماتها الجنسية، ولا تسعى الروائية إلى المعرفة عما تشعر به صفية ولا نجد أية إشارة إلى مشاعرها الجسدية ورغباتها المختفية. هل تهدف العثمان إلى التركيز على ذلك الحضور الجسدي اليافع والممتلئ بالشهوات اللذة فقط؟ أو تقصد تكوين التعاطف مع صفية من خلال تصوير شخصيتها المظلومة. لذا يشعر القارئ بأن الرواية لا تحمل في طياتها رسالة واضحة تماما.

ومن سلبياتها إغراقها في وصف شهوة صفية منذ عمر مبكر وتناميها مع العمر وذهابها الوقح في الملذات بلا انصياع لرادع داخلي، ولو أن الروائية قد ادعت بأن تكتب بحرية ولا تتقصد الإثارة، لا أرى ضرورة تصوير شخصية صفية كفتاة، لا تهمها سوى جسدها لأن صفية المتمردة على تقاليد المجتمع قد تفوز بتعاطف القارئ ولكن صورتها المدمنة للجنس تجعلها عبءا على المجتمع:

المسألة غير قصدية تماما أنا أكتب بحرية بحسب ما تمليه علي الحالة التي أخوضها روائيا أبدا الجنس ليس غاية بحد ذاته، وإلا لكتبت منه الكثير ولكانت تفوقت مبيعاته على كل الكتب التي ننشرها الآنأكتب بحرية أجل، من دون

تابوهات أو معو ـ قات، وأترك للحالة أن تأخذني إلى حيث يجب أن تأخذني، ولا أتقصد الإثارة هنا، بل العمل الفني اللازم والضروري لمطلق الكتابة"[107].

وعلى سبيل المثال، كيف يمكن لطفلة في الخامسة من عمرها، التلذذ بلمسات الصبيان على الشوارع:

"هي صفية المدللة. . . ما إن بلغت الخامسة حتى بدأت بوادر نبوءة الأب تظهر عليها، ليس بجمالها الطاغي وحده ولا بالتماعة البرق الغريب في عنينها بل كانت آفة الجسد الذي منذ أن خلق الله بث فيه بركانا من النار. فمنذ ولادتها لاحظت أمها أن (عصفور عانتها الصغير ناتئ كالمنقار) وبرق عينيها كعيني قطة متوحشة.

كانت تكبر. . .و المنقار يكبر. . والبرق ينذر بعاصفة. البنت لا تنام إلا وكفها لابدة بين فخذيها، وفي النهارات يصيبها شيئ كالحكاك فتظل كفها تهرش في العصفور وتبدو ملتذة بحكاكها.

أفصحت الأم لأبيها:

_ البنت فيها شيئ غريب دائما تحك.

بلا مبالاة قال:

_ يمكن فيه دود، اسقيها خروع ينزل مع الخورج.

---

[107]- جريدة ألف ياء، ليلى العثمان: أكتب بحرية ولا أتتقد الإثارة، صدر في التاسع عشر من ديسمبر 2013م

ظلت تسقيها الخروع. . لكن الدود لم يكن في أحشاء البطن، كان يسكن رأس المنقار وكأنه ينثر عليه ذرات من الفلفل، فيزداد حكاكها.

فاجأتها أمها أكثر من مرة وهي بلا ساتر تحك منقارها بملعقة أو خشبة، فتكتفي بضربها على كفيها وهي تنبهها:

_هذا المكان لا يلعبون به.

تسأل:

_ ليش؟

لم تكن الأم قادرة أن توضح لها قيمة ذلك المكان وهيبته. فقد أعتادت كل البنات أن يتشربن الخوف والحرص عليه من أمهاتهن، (هو الشرف) الذي بدونه توصم البنت وتعنس أو تقتل إن هي فرطت به. صعب أن تشرح للطفلة لكن التنبيه الذائم واجب عليها. وفي كل مرة تظن أنها تابت لكنها لا تتوب"[108]

كما تجد اللذة في سحب ثوبها حتى بداية الفخذ وهي في السابعة أو الثامنة من عمرها وتتعمد أن تقف في طريق الصبي الذي يربطون عينيه ليصيدها ويشدها إليه وقبل أن يفلتها يقرصها أو يسرب لأذنها كلمة فاحشة من تلك الكلمات التي

[108]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 18-19

تنفخ ريحا في جسدها فتركض إلى البيت لتدس كفها فوق المنقار حتى تنطفئ ريحها"[109].

إن حبها لحسين ابن السماك حسبما تقول الروائية، حبها الوحيد ولا تقدر صفية أن تنساه رغم كل المتع التي تتلذذ بها في بيت الوناسة مع الرجال ولا تتمكن من الوصول إلى اكتمال نشوتها إلا إذا استحضرت وجه حسين وجسده وتخيلت أنه هو من يراقدها، ظلت تحبه وتتمنى لو يعرف بيت الوناسة ويأتي لتشبع منه"[110].

فلا تنظر الكاتبة إلى الحب كقيمة كبرى وغاية قصوى للجسد إنما هي وسيلة لتقويت الجسد فهو أي الحب الذي لا ينجح في ردع صفية وتقييد شهوتها بل يمنحها أبوابا أكثر اتساعا للذة المحرمة، والشهوة المتنامية.

"كلهم توسدوا صدرها، ولجوا سردابها، وهي تملحت بملحهم وانتعشت أذنها بما لذ من أطايب الكلام الفاحش المثير. واعتاد يغرها ابتلاع رحيق ثغورهم ودفق شهواتهم، لا تشبع ولا تكتفي بواحد في الليلة، وهناء تدرك مدى شبقها ولا تمنعها، ففي كل مرة تكسب المزيد من المال[111].

ومن سلبيات هذه الرواية هي شخصية هلال، الذي يستمر متعاطفا مع صفية منذ نعومة أظفاره، حتى تقدمه بالسن، وكونه أبا لفتاتين، لم يشعر بأي خجل من تصرفات أخته الواضحة له بعد مرور السنين، على وجه الخصوص إنه

---

[109]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 32

[110]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 156-157

[111]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 156

تربى في مجتمع محافظ ومنغلق، قد يتسامح مع الحب البريء، ولكنه لا يتسامح مع ارتكاب الفاحشة. أليست هذه مفارقة سردية في رسم إحدى الشخصيات الذكورية في واحد من أشد المجتمعات العربية والخليجية تقليدية في زمن حدوث الحكاية وإلى الآن؟

ومن سلبيات هذه الرواية في وجهة نظري، المبالغة في عرض المشاهد الجنسية مع إمكانية الاكتفاء بالتلميح، حين تصور لحظة يفقد حبها مع حسين براءته:

"لم يكتف بما يؤنسها دون ألم ويؤنسه دون الإكمال. بدا فاقدا لرقته، عنيفا وهو يحاول.

توجست منه جاهلة بالذي ينويه. حاولت التفلت منه فازداد جنون رغبته. قاومت قليلا ثم استكانت بعد أن انتشى جسدها والتهب.

فاجأها باندفاعته القوية وهو يخترق الجدار ويقتحم باب قلعتها. كان الألم شديدا جعلها تطلق صرخة عالية قطعها سريعا وهو يكمم فمها بغترته واستمر في نزوحه حتى ارتعش وهدأ.

ارتمى لاهثا وعرقه يتصبب، تحاملت وجلست تتفقد حالها.

الألم يشقها ولون الدم السائل يفزعها"[112].

[112]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 77

ومن أمثلة التصوير الجنسي المكشوف: "بدأت مشاوير صفية إلى البيت العامر بالوناسات. . ثلاث مرات في الأسبوع. لم تعد خديجة تأتي لتصطحبها. فقد عرفت الطريق الذي تكنسه بخطواتها وفوران جسدها. كانت تقطع الشوارع لا يهمها هطل الغبار لا دبق الرطوبة، تعرفت على أشكال من الأجساد وتذوقت كل أنواع المتع، ولبت رغبات جسدها ورغبات الرجال. تقرف من روائح بعضهم وتحتملها، وتستاء من بعض الأوضاع الغريبة التي تؤلمها.وحين جربتها أول مرة بكت واشتكت لهناء، ظنت أن هناء ستوصي بها الرجال خيرا وتريحها ممن يمارسون هذه الأوضاع، لكنها فوجئت بها تثور وتصرخ لاذعة بلسانها:

_ أنت هنا لخدمة الزبائن، عليك أن ترضخي لكل ما يشتهون وإن لم يعجبك هذا الشيئ استريحي في بيتكم"[113].

فهذه بعض الجوانب السلبية التي قللت أهمية هذا العمل الأدبي ولو أنه يتميز بالإبداع الفني والجرأة الواضحة في إبراز القضايا النسائية المسكوت عنها، ولا يتمتع بشعبية أكثر حتى بين القراء العرب كما تقول السيدة فاطمة الشيدي:

"لقد حاولت العثمان بشكل ما تسليط الضوء على قضية الشرف التي تذهب بنساء كثر في مجتمعاتنا الشرقية ظلما وعدوانا، وتحرمهن من الحياة التي ليس من حق أحد مهما كان، زوجا أو أبا أو أخا، حرمان الإنسان منها، وقضية الحرية الفردية الغائبة تماما عند المرأة الشرقية، ولكن إغراقها في وصف شهوة

[113]- حكاية صفية، ليلى العثمان، صفحة 155-156

صفية منذ عمر مبكر وتناميها مع العمر، وذهابها الوقح في الملذات بلا انصياع لرادع داخلي أو خارجي، بل وبتحد صريخ لكل القيم الإنسانية والعائلية والمجتمعية والدينية مهما كانت النتيجة، وعدم التركيز على الحب كقيمة كبرى وغاية قصوى للجسد، فهو أي الحب لم ينجح في ردع صفية وتقييد شهوتها بل منحها أبوابا أكثر اتساعا للذة المحرمة، كل هذا حرم الرواية من وضوح رسالتها، والتعاطف مع بطلتها التي لم تظهر أي ندم على ما فعلت حتى بعد أن خرجت من السجن، وغطى فكرة تعرضها للظلم بالسجن ثلاثين عاما، ليجعل الرواية تسير في اتجاه الوصف لفعل اللذة أكثر من أي هدف آخر"[114].

خاتمة البحث

تبين لي خلال استعراض الرواية " حكاية صفية" لليلى العثمان وتحليلها من كل جانب من الجوانب الفكرية والفنية والأدبية والاجتماعية، أن هذا الموضوع يحتاج إلى جهد أكثر مما بذلته، وعلم أعمق وأوسع مما أعطيت أياه، وذلك نظرا إلى أهميته على المستوى العالمي بعد أن ازدهرت العلوم والفنون، ووصل العالم إلى ذروتها خلال القرنين الجاري والماضي.

ومما لا أرى شكا أن المجتمع الإنساني لن يتطور، ما دام أفراده يمارسون التمييز على أساس الدين والعقيدة والجنس كما لا يمكن الحصول على النجاح في شتى مجالات الحياة إلا إذا تيقنوا أن التفاوت الطبقي والتباين الفكري إنما يثريان

[114]- جريدة القدس، فاطمة الشيدى: ليلى العثمان في "حكاية صفية" اللذائذ المحرمة وجرائم الأشراف

الحضارات الإنسانية. أما المرأة في مجتمع ما، فتواجه المشاكل العدة بمجرد كونها أما، أو أختا، أو بنتا، أو زوجة، ولا تعامل أحسن معاملة، ولا تشعر بالافتخار حين تنظر إلى معاناتها بل تعيش في حالة الخوف من مستقبلها المظلم.

إن الروائية ليلى العثمان من خلال "حكاية صفية" تحاول إبراز بعض القضايا النسائية التي كانت تعاني بها المرأة الكويتية خاصة والمرأة العربية عامة في الفترة ما قبل اكتشاف النفظ ومازالت حتى بعد مر العقود على اكتشافه، تعاني ببعض منها، ومن القضايا التي تناولتها السيدة في روايتها هي حريتها من الأعراف البالية التي لم تكن سوى علامة عبوديتها وخضوعها لرغبات المجتمع وأفراده والنجاة من أشكال العذابات التي تفتح أبوابها عليها بدعوى الحفاظ على شرف الأسرة وغسل العار الذي تجلبه عليها.

وبالفعل، تحكي علينا ليلى العثمان حكاية فتاة مدمنة للجنس، وتصور لنا صورة المجتمع الكويتي القديم بل تنفخ فيها روحا، وتشير إلى الفظائع الاجتماعية والدينية المسكوت عنها خشية على العواقب الأليمة، كما تشرح جسد الواقع العربي بعد أن أشاح الغطاء عن كنه الحقيقة عقودا وأجيالا.

وحقا إن الرواية تكشف لنا عن أسرار المجتمع الكويتي المحافظ التي لم يتجرأ على كشفها أحد بعد، والتي قد سببت في إثارة ضجة بين أرباب العلم والفن، وتتميز بالجرأة التي لا مثيل لها في تاريخ الأدب الكويتي.

إن ليلى العثمان بنفسها، قد عانت كثيرا في حياتها وما إن فتحت عينيها حتى بدأت معاناتها قاتخذت قضايا نسائية موضوعا لها ووقفت حياتها في تصوير أوضاع المرأة المؤلمة محليا وعالميا وظاهرة "جرائم الشرف" التي تعم في معظم بلدان شبه القارة الهندية، والتي تدفع فيها المرأة حياتها نتيجة خطأ، أو انحراف عن الطريق، كانت وما زالت متواجدة في المجتمع بشكل أو آخر، وهي التي سرقت من صفية أسعد أيام حياتها، وعذبتها أشد العذاب.

فتصور ليلى العثمان في روايتها صورة حياة صفية المؤلمة المحزنة التي تتأثر بها القارئ بغض النظر عن إدمانها الجنسي وجسدها الظامئ لأنه ليس من حق أحد انتزاع حرية الإنسان.

يشتمل البحث على مختلف ألوان الحياة الكويتية، التي تثري بدون شك معلوماتنا عن الحضارة العربية القديمة، كما يشتمل على القضايا النسائية التي لا بد من البحث عن حلولها، وإلا فلا نستحق أن نكون مجتمعا إنسانيا عادلا.

ومع ذلك قد أشرت فيه إلى السلبيات التي صدرت من الروائية خطأ أو عمدا، وعلى سبيل المثال، شخصية صفية لا تقدر على تبرير أعمالها اللا أخلاقية بسبب تجاوزها سائر حدود القيم الخلقية والعائلية والاجتماعية كما لا تستطيع أن تدعي بأن حبها لحسين حب بريء لأن الحب له لم ينجح في ردعها وتقييد شهوتها.

كما أشرت إلى إغراق الروائية في وصف شهوة صفية منذ عمر مبكر وكل هذا قد حرم الرواية من أن تكون ذات رسالة واضحة.

وقد خصصت ثلاثة فصول لتسليط الضوء على عصر الروائية ليلى العثمان وحياتها العائلية والعلمية والأدبية لكي لا تبقي صفحة من دفتر حياتها إلا وأن نقلبها خشية أن لا يفقد منا شيئ.

وأخيرا، أسأل الله تعالى أن يجعل عملي هذا خالصا لوجه الكريم ويقبله منا إنه مجيب الدعاء وخيرمآب.

المراجع والمصادر

الكتب

1. القرآن الكريم
2. التيمي، عبد المالك خلف، أبحاث في تاريخ الكويت،
3. العثمان، ليلى، حكاية صفية، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى عام 2013م
4. العثمان، ليلى، المحاكمة، دار الأداب للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى عام 2009م
5. العثمان، ليلى، صمت الفراشات، دار الأداب للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى عام 2007م
6. العثمان، ليلى، وسمية تخرج من البحر، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى عام 2012م

الجرائد والصحف

1. جريدة القبس، الصادرة من الكويت، الثامن عشر من أبريل 2008م.
2. صحيفة اليوم السابع، الصادرة من مصر، الثامن عشر من فبراير 2014م
3. موقع ديوان العرب، العدد المنشور في يونيو 2006م
4. جريدة الأخبار، الصادرة من الكويت، السابع والعشرين من ديسمبر عام 2001م.
5. موقع الأدب، نبذة حول الأدبية: ليلى العثمان
6. صحيفة الحياة، الصادرة من بيروت، لبنان، العشرين من مايو 2006م
7. مؤسسة إعلامية البوابة نيوز، الصادرة من مصر، الرابع عشر من فبراير 2013م
8. جريدة ثقافات، الصادرة من بغداد، العراق، التاسع عشر من ديسمبر 2013م
9. مجلة دار الخليج، الصادرة من الإمارات العربية المتحدة، الثاني والعشرين من أكتوبر 2008م

10.دنيا الوطن، الصادرة من فلسطين، الخامس من نوفمبر 2011م

11.وكالة أخبار المرأة، الواحد والعشرين من أبريل 2014م

12.الجريدة، الصادرة من الكويت، الحادي عشر من نوفمبر 2013م

13.الجريدة، الصادرة من الكويت، الواحد من أكتوبر 2013م

14.جريدة النهار، الصادرة منت الكويت، التاسع من ابريل 2014م

15.جريدة الرأي، الصادرة من الكويت، الثلاثين من أغسطس 2013م

16.جريدة الوطن، الصادرة من الكويت، الثامن من سبتمبر 2013م

17.جريدة ألف ياء، الصادرة من العراق، التاسع عشر من ديسمبر 2013م

المحتويات

مقدمة البحث	1
الباب الأول: ليلى العثمان: عصرها وحياتها وأعمالها	6
الفصل الأول: عصر ليلى العثمان—لمحة خاطفة	8
نشأة دولة الكويت نشأة حديثة قبل النفط	8
الحياة الاقتصادية في الكويت	10
الحياة الاجتماعية في الكويت	11
المرأة في المجتمع الكويتي	13
التغير الاقتصادي: الحياة الكويتية بعد اكتشاف النفط	15
الفصل الثاني: حياة ليلى العثمان	19
ولادتها ونشأتها	19
تعليمها	22
حياتها العائلية	25
حياتها العملية	27

الجوائز والعضويات 28

الفصل الثالث: أعمالها الأدبية 30

القصة القصيرة 34

الرواية 38

السيرة وأدب الرحلات والحرب 40

الشعر 43

الباب الثاني: القضايا النسائية في الرواية "حكاية صفية" 45

الفصل الأول: ما هي القضايا النسائية في الرواية؟ 49

الفصل الثاني: آراء المعاصرين في تأييدها 70

الفصل الثالث: آراء المعاصرين ضدها 79

الباب الثالث: دراسة تحليلة لـ"حكاية صفية" 84

الفصل الأول: المنهج الفني في الرواية "حكاية صفية" 84

لغة الرواية وأسلوبها 84

شخصيات الرواية 87

سرد الرواية وحبكتها 92

الحوار	93
زمان الرواية ومكانها	94
الفصل الثاني: الفكرة الرئيسية في الرواية	97
الفصل الثالث: ملامح بارزة في الرواية	104
الفصل الرابع: سلبيات الرواية	113
خاتمة البحث	121
المراجع والمصادر	124

قضايا نسائية في الرواية "حكاية صفية" لليلى العثمان

Qadhaya Nesaiyyah fi Al Rewayah "Hikayat Safiyah" le Laila al Othman

(Women's Issues in the novel "Hikayat Safiyah" by Laila al Othman)

Master of Philosophy

Under the Supervision of

Dr. Md. Qutbuddin

Submitted by

Mohd Afaque Alam

Centre of Arabic and African Studies

School of Language, Literature & Cultural Studies

Jawaharlal Nehru University

New Delhi, 110067